

د. ناصر عبدالله تركي البكر

ذاكرتي الأدبية



عصور للنشر والتوزيع



ذاكرتي الأدبية

ذاكرتي الأدبية

د. ناصر عبدالله تركي البكر

الطبعة الأولى
2026م



عصور للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/7/3754)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب

عنوان الكتاب: ذاكرتي الأدبية

تأليف: البكر، ناصر عبدالله تركي

بيانات النشر: عمان: دار عصور للنشر والتوزيع، 2025.

رقم التصنيف: 810.9

الواصفات: النقد الأدبي// الأعمال الأدبية//الأدب العربي//

ردمك 5- ISBN: 978-9923-17-327

محفوظة
جميع الحقوق

© Copyright

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.



عصور للنشر والتوزيع

عصور للنشر والتوزيع

هاتف: 0795979893

ص. ب : 910431 عمان 11191

E:Mail: ausoor2020@gmail.com

الإهداء

إلى أمي - رحمها الله - التي غرست في قلبي محبة الكلمة، وعلمتني كيف
أنصت لحكايا الليل، وأستبين من رائحة التراب أسماء الشجر والعشب،
وأحفظ من شدوها ترانيم الأمثال والقصائد الشعبية.
هي التي ربّنتني على الصدق والبساطة، وفتحت لي دروب المعرفة بين الهضاب
والجبال، فعرفت منها أسرار المكان، وطيب الإنسان.
لكِ يا أماه، كل الامتنان والوفاء، فقد كنتِ أول معلم، وأكرم ملهمٍ في رحلتي
مع الأدب والحياة ...
كم تمنيت وجودكٍ ليس للاحتفال في الكتاب فقط ، ولكن تمنيت وجودكٍ
لأسباب غير منتهية ، أدعو الله أن نجتمع في الجنة اجتماعاً أبدياً خالداً....

المحتويات

- 8..... تقديم: د. فهد إبراهيم البكر: ذَاكِرَةٌ تُنْضِحُ أَدْبًا.....
- 13..... تأملات في دروب الحرف ونفحات الروح:.....
- 14..... طفولة الحرف:.....
- 15..... لحظات لا تُنسى مع القراءة.....
- 17..... بين الشعر والنثر:.....
- 18..... الكتابة بوصفها خلاصاً:.....
- 19..... من ذاكرة المجالس الأدبية.....
- 22..... رحلتي مع الكتابة الإبداعية.....
- 23..... اللغة: بين الهوية والانفتاح.....
- 24..... رسالة إلى شعراء لم ألتق بهم.....
- 26..... رسالة إلى كُتّاب لم ألتق بهم.....
- 29..... بين القراءة والكتابة: ازدواجية الوعي.....
- 30..... ما لم يُكتب بعد.....
- 31..... أدب الذاكرة وذاكرة الأدب.....
- 32..... الكتاب الذي غيّرني.....
- 34..... عن العزلة والقراءة.....
- 35..... أوراق القديمة:.....
- 36..... روايات وقصص حفرتني.....
- 40..... عن الكتابة بصوت داخلي.....
- 41..... ومضات خالدة وكلمات قيلت لتبقى.....
- 59..... فصاحة بلا صخب، وهيبة بلا سيف.....
- 65..... المدارس الأدبية في ذاكرتي.....
- 69..... الشعر جاهلي: صوت الصحراء الأول.....
- 71..... الشعر الأموي: منبر العروبة والفصاحة.....
- 72..... الأدب العباسي: فتنة العقل واللغة.....
- 74..... الأدب الأندلسي: أندلس الكلمة والحنين.....
- 75..... الدول المتتابعة:.....

76	الأدب في العصر الحديث
77	الأدب السعودي
82	قصائد صنعت فارقاً في حياتي
101	والدي... شيخُ اللغويين ومهندسُ الروح
105	كتب شكّلتنِي وبنّت الكثير من جوانبي الأدبية
112	بساتين الشافعي - مختارات شعرية ورؤى فنية
118	أبو العتاهية - شاعر الحكمة والزهد
124	المتنبي - شاعر المجد والزواجر الوجدانية
129	مصطفى صادق الرافعي نَفْسُ البيان وأريجُ العزّة
130	عن الرافعي الإنسان
131	الرافعي والدفاع عن اللغة والهوية
133	الجاحظ - عقلٌ عربي يكتب بالحر والفلسفة
136	لحظات لا تُنسى في أروقة القاعات
147	شغفي بالمكتبات
152	القرآن والحديث... غذاء الروح ومشعل الأدب
158	القلب - موضع البصيرة ومحرّك الكائن
160	العقل - ميزان الإنسان ومفتاح التوازن
162	العيون - مرآة البصيرة ومنافذ المحاسبة
165	رائحة الطعام... وذاكرة الكرام
171	مزيجي الأدبي... ما بين فصاحة الرمل ونور النبوة
174	مرآة الروح وكلمة القلب
176	نصفُ المشوار.. وكلُّ السُّنْد
178	الخاتمة
180	المراجع

تقديم: د. فهد إبراهيم البكر:

ذَکِرَةٌ تَنْضَحُ أَدَبًا

معلوم أن الذاكرةَ حديثُ الإنسانِ عن ذاته، وما مرَّ به في حياته، فهي استعراض لما مضى من مواقف، وأحداث، وتجارب، قد يسطرها كاتب في قلب أدبي جميل، وبأسلوب فنيٍّ بديع، هكذا ينبغي أن تكون الذاكرة الأدبية جزءاً مهماً وحيوياً في عالم الأدب الواسع، وهكذا ينبغي أن تصبح شكلاً أدبياً حافلاً بالجماليات، كلما توغلت في شعريتها، ولم تتخلَّ عن خطها الذاتي، ونسقها الأدبي، وإن شابهها - أحياناً - بعض التداخل الأجناسي الذي يجعلها تتقاطع مع فنون وأجناس متعددة، كالرواية مثلاً، أو المذكرات، أو اليوميات، أو الرسائل، أو التراجم، أو السير بلونيتها: الذاتي، والغيري.

إنَّ أجمل ضابط للمسألة الشائكة بين الذكريات والمذكرات ما حدده الشيخ الطنطاوي - رحمه الله - وذلك في كتابه (ذكريات)، حيث قال: "هذه ذكريات، وليست مذكرات؛ فالمذكرات تكون متسلسلة مرتبة، تمدها وثائق معدة، أو أوراق مكتوبة، وذاكرة غضة قوية. (...). قلت: إني أدون ذكريات، لا أكتب مذكرات. أنا لا أستطيع أن أكتب قصة حياتي متسلسلة مرتبة؛ لأنني أعتمد على ذاكرة فقدت حديثها، وأبليت الأيام حديثها، فقد أنسى الحادثة في موضعها ثم أذكرها في غير موضعها".

وبمقدورنا القول: إن الذاكرة الأدبية حين تُكتب في سردٍ إبداعي، إنما تندرج ضمن فن الأدب الذاتي، وهو فن ألصق ما يكون بالأديب، أو المثقف

عموماً؛ ذلك أنها (أي الذاكرة الأدبية) سرد يقوم على الوصف، والقص، وتوظيف العناصر الحكائية، واستعراض تجارب الحياة، ومواقفها العلمية والمعرفية، بأسلوب جاذب، ولفظ بديع، سواء أكان هذا السرد ذاتياً، أم غيرياً، ومن هنا فإن الذاكرة الأدبية شكل أدبي بات اليوم - كالسيرة - حائراً بين جنسين، أو شكلين أدبيين هما: (الذاتية)، و(الغيرية).

وفي ظل الانفتاح الكبير الذي يشهده الأدب الذاتي في زمننا هذا إبداعاً ونقداً، ما زالت (الذاكرة الأدبية تحديداً) أخفّ وهجاً، وأقل حضوراً، مع أنها ألصق بالسيرة، وأعمق، وربما عُدّت فرعاً من فروعها، أو جنساً سيرياً ثانوياً؛ نظراً إلى قِدَم نشأتها، وتنوع ملامحها، وكثرة نماذجها، غير أن الجميل في الأمر أن تجد من يمزج الذاتية بالغيرية في قالب استرجاعي أدبي آسر، وسردٍ قصصي ساحر، فيتنقل بك بين تجاربه، ويقارن بين تجارب الآخرين، ويستعرض مواقفهم، ويفصّل في ما مرّوا به من أحداثٍ متنوعة، متكثراً في ذلك على تلك الذاكرة المتّدة، والسيرة الغنية بالجديد المفيد، والنافع الماتع.

من هنا تجمّع (الذاكرة الأدبية) للمؤلف بين الذاتي، والغيري، فهو يتحدث عن نفسه، وعن تجاربه، وعن مواقفه، وفي الوقت ذاته يتحدث عن الآخرين، وعلاقته بهم، وصلته معهم، وعندئذ تكون الذاكرة أصدق من غيرها وأعمق، ولقد رأيتُ في بعض التجارب الذاتية التي يقدمها مؤلفوها عن سيرهم الكتابية - أو القرائية، أو البحثية، أو الذوقية، أو النقدية - شيئاً من الإبداع والإمتاع لا يمكن وصفه؛ ذلك أنهم يصورون المعاناة في ثوب

قشيب، ويرسمون البسمة من واقع الألم، ويترجمون المتاعب والمصاعب إلى شيء من اللذة الروحية، والمتعة الفنية.

وما أجمل تشخيص أستاذي التونسي أ.د. صالح الهادي بن رمضان للذاكرة الأدبية والهوية الثقافية عندما قال: "وقد غدت الذاكرة موضوعاً من الموضوعات النازمة للفكر الإنساني المعاصر بصفقتها قضية من قضايا الحوار مع الغير، وأسلوباً من أساليب التعبير عن الاختلاف الثقافي"، وقد أشار أيضاً إلى أن الذاكرة الأدبية تنزع نحو مسلكين هما: الذاكرة في دلالتها المتسعة، والذاكرة في دلالتها الأدبية الضيقة، هذان النوعان "هما اللذان يمدّان الهوية الثقافية بما تحتاج إليه من المقومات الضامنة لاستمرار التفاعل بين الأجيال، المقومات المعبرة عن خصوصية اللغة وعبقريتها، وعمّا يميزها من سائر اللغات والثقافات. ولا شك في أن مختلف مؤسسات المجتمع هي وحدها القادرة على تأسيس التربية اللغوية الضامنة لهذه الهوية، في آداب التواصل والتخاطب، وفي التعليم، والتكوين، وفي سائر مظاهر التمدّن الاجتماعي، والأنس البشري، وفي صلة المجتمع بالآخر".

من هنا أكبرتُ في ابن العم الدكتور ناصر بن عبد الله البكر هذه الذاكرة الأدبية الجميلة التي يقدّمها لنا بين دفتي كتاب، ويضعها على طبق من (أدب)، وهو الذي عرفته شاعراً مفلّحاً، وخطيباً مصتقاً، وسارداً ألقاً، ومتحدثاً لبقاً، والشيء من معدنه لا يستغرب، أليس هو ابن العم الأديب الكبير الأستاذ: عبد الله بن تركي البكر، صاحب البلاغة والبيان، وحامل لواء الخطابة الذي يُشار إليه بالبنان، ولن أتوسّع أكثر في وصف الأديبين،

فشهادتي فيهما قد تكون مجروحة كما يقال؛ ذلك أنني أنتمي لهذه العائلة الكريمة، وتربطني بهما رحم خاصة، وعلاقة ماسة؛ لذلك لن أستطرد في الإطراء والثناء، وإنا كانا فوق إطرائي وثنائي، لكنني أقول: إن الدكتور ناصر - حفظه الله - قد أبدع في نسج خيوط ذاكرته الأدبية أيما إبداع، وقد كشف فيها عن سننه الكتابي، وذوقه الأدبي، وأسلوبه الجميل الذي كنتُ أطلعته مطالعة المتذوق، لا مطالعة الناقد.

لقد حوى كتاب الدكتور ناصر البكر صنوفاً متنوعة من الأدب، والنقد، والثقافة، وكانت ذاكرته تفيض بالجمال والبهاء، كأنما يتجول بنا في بساتين نضرة، يمرّ بنا مع الأشجار، ويمجاوز التلال والأنهار، يقطف لنا من كل بستان ثمّره، فتنسّم رياحيته وورده ورّهه، يأخذك إلى الأدب القديم، ثم ينقلك إلى الأدب الحديث، يسقيك من حكمة العرب، ويرويكَ من خبرة الغرب، يغذي عقلك بعصارة عقله، ويمدّ ذوقك برهافة حسّه، يمنحك الكتاب الذي قرأه بأيسر عبارة، ويلفت انتباهك إليه بأخفّ إشارة، يقصّ عليك من نبا الأولين والآخرين، ويأخذك إلى عالم المفكرين والمستشرقين، فيثريك بالمعرفة، ويلهمك التفكير والمهارات، ويزرع في نفسك فهم الذات، وحب الهوية والمرتكزات، يدفع بك إلى مزيد من التطلع والبناء، والتقدّم والثناء، ولم لو يأتك من قراءة ذاكرته إلا التشجيع والتحفيز لكان ذلك الأمر كافياً.

وهذه دعوة مني صادقة إلى قراءة مثل هذا السرد الممتع، والشر الشائق، والشعر المتنوع الذي ضمّه الكتاب، كما أنني أقترح على المبدعين،

والدارسين، والمهتمين، بعث الاهتمام بمثل هذه الألوان من الأدب الذاتي الصادق، الذي يسترجع الذاكرة إلى واحات من العلم، والأدب، والمعرفة، وينبّهك إلى احتذاء الأنموذج، واستعراض التجارب القيمة، والمواقف المفيدة، والأحداث النافعة، والتساؤلات الجديدة، تلك التي تحرّض على القراءة والكتابة بوصفها مكملين لبعضهما البعض، وكأن هذا الكتاب شاهدٌ على أن الذاكرة الأدبية ليست استرجاع الذكريات واستعادتها فحسب، بل هي إعادة كتابتها من جديد، وتمثلها بشكل فريد، وإعادة اكتشافها ونقلها للعالم؛ لتصبح جزءاً من خيال الكاتب، ولهفة المتلقي، وتذوق المتأمل.

د. فهد إبراهيم البكر

أستاذ الأدب والنقد المشارك بجامعة حائل

عضو الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

كوالالمبور - ماليزيا

في صباح يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر الله

المحرم 1447هـ

الخامس عشر من شهر يوليو تموز 2025م

تأملات في دروب الحرف ونفحات الروح:

اللغة ليست مجرد وسيلة تواصل، بل هي وطن.
وعندما نتحدث عن الأدب، فنحن لا نتحدث فقط عن كتب نقرأها أو
نصوص نكتبها، بل عن تجارب عشناها، وعوالم سرنا فيها دون أن نخطو
خطوة واحدة خارج الغرفة.
كانت الكلمة الأولى التي قرأتها بوعي تشبه الباب، والعبارة الثانية كانت
الدرج، والصفحة الأولى كانت العتبة إلى العالم الأوسع.
منذ تلك اللحظة، لم أعد أعيش في عالم واحد، بل صرتُ أتنقل بين العوالم،
بين المتخيل والحقيقي، بين الشاعر والمفكر، بين المتنبي وهمنغواي، بين
الرافعي وتشيوخوف.

طفولة الحرف:

البدايات الأولى مع الأدب
طفولتي لم تكن مليئة بالألعاب، بل كانت مكتظة بالأسئلة.
كنت أبحث عمّا لا يُقال، عن ذلك الذي يسكن خلف الكلمات.
كان أول تعرّف حقيقي لي بالأدب من خلال كتاب مدرسي قديم، يحمل
قصيدة للشافعي لا زلت أذكر منها:
ولا خيرَ في ودِّ امرئٍ متلوّنٍ
إذا الریحُ مالت، مال حيث تميلُ”
لم أفهم المعنى حينها، لكنني شعرت بشيء يتملكني.
أحبيت الوزن، والإيقاع، وانبهرت بقدرة الكلمة على التوبيخ بلطف،
والهجوم بنبل.
كانت تلك اللحظة التي بدأت فيها أبني مكتبتي الصغيرة: رفٌّ خشبي، فيه
ثلاثة كتب، لكنها كانت أعلى من الألعاب.
كنت أقرأ تلك الكتب مرارًا، كأنني أحاول أن أنقب عن المعنى تحت كل
حرف.

لحظات لا تُنسى مع القراءة

أجمل ما في القراءة أنها تجعلك تتألم دون أن تُجرح، وتضحك دون أن يكون حولك أحد.

أذكر أنني كنت أقرأ في مكتبي معلومة وأنا واقف، فانهمكت بين المعلومات وإذ بي قد جلست القرفصاء.
وفجأة أحسست بالألم وانتبهت للوقت، وإذا بالساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً.

كنت غارقاً تماماً داخل سيلٍ من التأملات والمعاني، لا أدري أكان ما يجذبني هو سطور الكتاب أم صدق الأفكار التي راحت تتوالد في ذهني دون استئذان.

كان العقل يتقافز بين المعاني، والقلب يخفق بحنين غريب، كأني أستعيد حياةً أخرى كنت قد عشتها في زمن لم أسجله.
ثمة كتب لا تُقرأ، بل تسكنك، تسرقك من ذاتك، وتلقي بك في غياهب الدهشة.

وكلما أوغلتُ في القراءة، شعرتُ وكأنني أذوب في الحرف، أصير سطوراً، أو ظلاً على الورق، أو رعشة صغيرة بين فاصلتين.
كنت أجلس هناك القرفصاء، جسداً على الأرض، لكن روحي كانت تقف على أطراف النجوم، تشرب من نبع الحكمة البعيد.

ما الذي يجعلنا ننسى الوقت؟ أهو سحر الكلمة؟ أم هو شغفنا الدفين بأن نعرف، أن نفهم، أن نرتب هذا الكيان المرتبك بلغة نظمئن إليها؟ إن المعرفة حين تلامس قلبك، لا تبقيك كما كنت، إنها تهزّك، توقظك، تبنيك من جديد.

حين انتبهت لوقع الألم في جسدي، شعرت بأنني خرجت من حلمٍ لم يكتمل.

وضعت الكتاب جانبًا، وكأنني أودع صديقًا عزيزًا لا أدري متى أراه مجددًا. ورفعت رأسي نحو أرفف المكتبة، تلك التي شهدت لحظاتي الأصدق، وهمساتي الخفية، وسكوني المضيء.

المكتبة ليست خشبًا وورقًا، بل وطنٌ صغيرٌ تُقيم فيه أرواحنا الهاربة من صخب العالم.

وقفت ببطء، كأنني أترك مجوهرات نفيسة، أو جلسة ممتعة مع أعز الأصدقاء، واتجهت نحو سريري، لكنني كنت أعلم أن النوم سيقف طويلًا على العتبة.

فقد أيقظتني القراءة أكثر مما أنهكني السهر

وفي أحد فصول الصيف، كنت أعيد قراءة “الرجل الذي حسب زوجته قبة” لأوليفر ساكس، ووجدتني أبكي فجأة. بكاءً حقيقيًا، لأن الكاتب كان يصف حالة إنسانية مؤلمة، بكلمات علمية لكنها شديدة الرقة.

شعرت أن الحروف يمكن أن تكون أقرب من كل شيء.

بين الشعر والنثر:

محطات إلهام

في حياتي لحظات كنت فيها شاعرًا رغماً عني.
كانت المشاعر طاغية، فلم أجد غير القصيدة وسيلة للنجاة.
وفي لحظات أخرى، وجدت في النثر ما لا يمكن أن أقوله بالشعر.
النثر يمنحك الفضاء المفتوح، بينما الشعر يحملك في قارب صغير وسط
عاصفة من المشاعر.
كتبت الشعر الحر، والنثر المنشور، وقرأت القصيدة العمودية كما تقرأ المشاعر
في عين أملك .

الكتابة بوصفها خلاصاً:

تأملات في فعل الإبداع
الكتابة فعلٌ من أفعال النجاة.
حين أشعر بالظماً الأدبي، أبحث عن الورقة البيضاء.
هي المساحة الوحيدة التي لا تحكمها قوانين الزمان والمكان.
أكتب لأفهم نفسي، ولأعيد تشكيل الواقع كما أريده أن يكون.
في كل قصة أكتبها، هناك شخص يشبهني.
في كل سطر، هناك ظلٌّ من حزني أو ضحكتي.
ليست الكتابة ترفاً، بل رد فعل داخلية عميقة، أمارسه كما يهمس الأب
الحنون لأولاده قبل المنام، وكأنها الطريقة الوحيدة لفهم الذات، بل ربما
للعالم بأسره .

من ذاكرة المجالس الأدبية

كم أحببتُ المجالس التي كان فيها الحديث يبدأ من الكتب، لكنّه لا يلبث أن يشقّ طريقه إلى الحياة... تلك المجالس التي كان صمتها أبلغ من ضجيج غيرها، ومسامرتها مزيج من نور العقل ودفء الروح.

جلستُ إلى شعراء، ما كان الشعر عندهم كلمات تُرصُّ، بل كان نسجًا من نفوسهم، كأن الحرف إذا خرج منهم خرج ومعه شيءٌ من دمهم.

كانوا يكتبون بإبداع لا يحاكي، ويتحدثون بلسانٍ لا يجارى، وإلهام لا يُفسَّر. ولقيتُ روائيين، في عيونهم خرائط لمدنٍ لم تولد بعد، وفي أصواتهم حكاياتٍ تنتظر الخبر.

كان في مجالستهم شعورٌ بأن العالم ليس فقط ما نراه، بل ما نكتبه ونصوغه من معانٍ ورؤى.

حضرتُ مجالس اجتمع فيها العالم والأديب، فكان الفكر يشعّ من قول الحكيم، ويتوهج في تعليق الشاعر.

وكنت أرى أن البلاغة لا تسكن الكتب وحدها، بل تجلس معنا على الكرسي المقابل، في هيئة شيخٍ مهيب أو أستاذٍ هادئ.

استمعتُ... وناقشتُ... وخالفتُ، لكنّي خرجت من كل مجلس وأنا أكثر حبًا للحرف، وأكثر احترامًا للعقل، وأشدّ يقينًا أن الفكر إذا خالط القلوب، صار زادًا لا يُشترى.

وفي بعضها، كان النقاش يمتدّ بيننا حتى يضيق عليه الليل، فلا نشعر إلا وساعة الحائط قد جاوزت منتصف الليل، وكأن الزمن ينسى نفسه حين نجلس إليه.

تحدّثنا عن الشعر القديم، وسيرة المتنبي، وعن القالي حين كتب “الأمالي”، وكأننا نتجول بين الحقول

وناقشنا ابن القيم في “مدارج السالكين” كيف صاغ الحكمة بأسلوب لا يصنعه إلا قلبُ أحبّ الله وأدرك أسرار النفس.

وأحياناً، كان بعضهم يحدثك عن بيت شعر فيتحوّل المجلس بأسره إلى بحث في النفس الإنسانية، أو في جدلية الجمال والمعنى، وكأننا لا نناقش بيتاً، بل نبحث عن أنفسنا فيه.

كانوا كباراً... لا بأسمائهم، بل بما حملوه من علم، وما أنفقوه من عمرهم في رحيق المعاني.

وكان لي شرف الجلوس معهم، حيث لا يُرفع صوت فوق صوت المعرفة، ولا يُكرم أحد كما يُكرم السؤال.

هذه المجالس لم تكن مناسبة اجتماعية، بل كانت مدارس روح وفكرٍ وأدب. منها ما لا أذكر له تاريخاً، لكنني أذكر أثره.

ومنها ما نسيت مكانه، لكن لم أنس وجهه من تحدّث فيه.

وبعضها كان عابراً، لكنه خلف في روحي نقشاً لا يمحوه الزمن.

إن من نعم الله على طالب العلم والأدب، أن يُقَرَّب إليه جلساء من هذا الطراز... جلساء إذا تكلموا أضافوا إليك، وإذا سكتوا أراحوا قلبك، وإذا خالفوك أرووك.

ولعل أجمل ما في تلك المجالس، أنها كانت تذكّرني دائماً أن الكلمة، حين تُقال بصدق، تساوي عمراً

رحلتي مع الكتابة الإبداعية

لم أبدأ الكتابة لأنني قررت أن أكون كاتبًا، بل بدأت حين لم أعد أحتمل الصمت.

كانت الكتابة الملاذ الأخير، حين خانتني القدرة على الشرح، أو سئمت من التفسير.

أول نص كتبت لم يكن سوى خاطرة صغيرة، خطها قلبي قبل يدي، وكنت أظن أن لا أحد سيهتم بها، فإذا بها تفتح أبوابًا كنت أظنها موصدة.

مررت بمراحل كثيرة في الكتابة: الخاطرة، المقالة، القصة القصيرة، التجربة الشعرية، ثم الوقوف الطويل عند النص المفتوح، الذي لا ينتمي إلى شكل محدد، لكنه يفيض بالحس.

كل نص كتبت، كنت أخرج منه إنسانًا آخر، أكثر وعيًا، وأكثر فهمًا.

اللغة: بين الهوية والانفتاح

اللغة عندي ليست مجرد وعاء للمعنى، بل هي هوية. حين أكتب بالعربية، أشعر أنني أكتب بروحي. لكنني لا أنكر أن انفتاحي على لغات أخرى، كالفرنسية والإنجليزية، علّمني كيف أرى المعنى من زوايا مختلفة.

الأدب الحقيقي لا يعيش في حدود اللغة فقط، بل يزدهر حين يكون ابن ثقافته، وحفيد الإنسانية.

لكن تبقى العربية هي الأم، صوت القلب، ونداء الماضي، وحبل النجاة.

رسالة إلى شعراء لم ألتق بهم

﴿إلى أولئك الذين جعلوا الشعر قلباً ينطق بالحكمة﴾

إليكم، يا من جعلتم من الكلمة أفقاً يتسع للدهشة، ومن الشعر رسالة لا تقل عن صوت الحكمة والضمير، أبعث رسالتي هذه، لا بمداد ناقدٍ، بل بروح قارئٍ أحبَّ شعركم، وسكنه صدقُه.

إلى أحمد شوقي، أمير الشعراء، ما أكثر ما وقفتُ أمام أبياتك مدهوشاً، كأنك تُنشد لا تكتب.

كنت أمير الشعراء، لكنك كنت أيضاً شاعر الطفولة، والوطن، والدين، والإنسان.

في قصيدتك ولد الهدى فالكائنات ضياءٌ، شعرت أن الشعر يتألق، ويمجد، دون أن يفقد أناقته أو وقاره.

علمتني أن الشعر لا يعارض الإيمان، بل يرقى به.

وإلى حافظ إبراهيم، شاعر النيل، يا من نقلت صوت الشعب بصدق وحرارة، وزدت عن اللغة كما يزود الجندي عن ثغور بلاده.

فيك اجتمع الشعر بالرسالة، والعاطفة بالحكمة.

وكم هزّتني مقولتك على لسان العربية:

“وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً،

وما ضقتُ عن آيٍ به وعِظَاتٍ”

فشعرتُ أن الشعر يمكن أن يكون حارسًا هُويَّة أمة بأكملها.
وإلى محمود سامي البارودي، رائد النهضة الشعرية، يا من رفعت الشعر من
حالة الانكسار إلى مقام العزّة، وأعدته إلى لغته القوية، وسجيته العالية.
لم تكن شاعرًا فقط، بل فارسًا في ميدان الحرف والموقف.
فيك استيقظ التراث ليستنهض العصر.
أنتم، يا من صغتم الحكمة شعراء، لم تكتبوا للتسلية ولا لمديح اللحظة، بل
كتبتم لتوقظوا الضمير، وتعيدوا للشعر مكانته في صياغة الوجدان.
لم ألقكم، لكنني وجدتكُم في أبياتٍ تعلّقت بها ذاكرتي، وفي قوافٍ حفرت
أثرًا في وجداني.

رسالة إلى كتاب لم ألتق بهم

كلماتهم نور، وصفحاتهم دربٌ إلى الفهم والتزكية)

الرسائل هي الأدب حين يخلع معطفه الرسمي، ويظهر بقميص القلب. في زمن الورق، كان الحبر يحمل النبض، وكانت الرسالة تُكتب على مهل، تُراجع، ثم تُرسل محمّلة بالشوق. طالما فُتنت برسائل الأدباء.

كانت كتبًا غير منشورة عن الحنين والتأرجح بين البوح والصمت. وفي لحظات تأمل، كتبت رسائل إلى كتاب لم ألتق بهم أبدًا، ولا أحتاج أن أرسلها.

يكفيني أن أكتبها كأنني أفتح نافذة على قلبٍ بعيد: أفق احترامًا أمام كتاب لم تجمعني بهم المكاتب ولا المجالس، لكنهم علموني ما لم أكن أعلم، وفتحوا لي أبوابًا في الفكر والدين، ما كنت أصل إليها وحدي.

إلى ابن القيم الجوزية، يا صاحب مدارج السالكين والفوائد، لم تكن كاتبًا فحسب، بل كنت مرشدًا للروح التائهة. في كلماتك وجدت عمقًا عجيبيًا، يجمع بين فقه النفس، وشفافية الإيمان، وحيوية العقل، وبلاغة الكلمة.

علمتني أن التدين لا يكتمل دون وعي، وأن القلب لا يصفو دون مجاهدة.

وإلى ابن الجوزي، صاحب صيد الخاطر وتلييس إبليس، يا من خاطبت
النفس بكل ما فيها من ضعف ورغبة، وجعلتني أرى الإنسان كما هو، لا كما
يدّعي.

كنتَ طبيباً للقلوب، تكتب بالأسلوب الساحر، فتُضحكننا حيناً، وتُبكينا
حيناً، لكنك دائماً تتركنا نفكر.

وإلى ابن الأثير، مؤرخاً لا يكتفي بسرد الوقائع، بل يحلل، ويفهم، ويربط بين
الحدث والعبرة.

في الكامل في التاريخ، جعلتني أعيش عصوراً لم أعاصرها، وأفهم السنن
التي تتكرر في مسار الأمم.

وإلى مصطفى لطفى المنفلوطي، يا من كتبت بالقلب قبل القلم، في النظرات
والعبرات، غلبت العاطفة الصادقة على كل زخرف لغوي، فجعلت البسيط
عميقاً، والمألوف مؤثراً.

فيك رأيت أن الكاتب لا يحتاج إلى ضجيج الحداثة ليكون مبدعاً، بل يكفيه
الصدق والصفاء.

إلى مصطفى صادق الرافعي،

يا من جعلت من الحرف ينبوعاً، ومن البلاغة سبيلاً إلى نور السماء،

كنتَ تكتب لا لتعجب، بل لتوقظ.

تكتب لا لتبهر، بل لتطهر.

كلماتك لم تكن حبراً، بل دمعة قلب، وهمسة يقين، ووهجاً من فجر
الصالحين.

علّمني، يا نبراس البيان،
كيف يكون الحنين إلى الله زادًا لا يفسد،
وكيف يكتب المرء حين يستند على الإيمان، لا على شهرة أو تصفيق؟
كيف تصير اللغة وطناً، لا نخاف ضياعه، ولا تغرب شمسها في الغربة
أعلمني، كيف يُنَافح الكاتب بقلمه، دون أن يصرخ، ودون أن يتخلّى؟
وكيف تبقى الكلمة حيّة، حين تُكتب بصدق، وتُبتّ من روح لا تطلب إلا
وجه الله؟

رحمك الله يا فارس الكلمة والمعنى،
وسلامٌ على حرفٍ يُضيء الطريق، حين تعتم فينا الدنيا
أنتم كتّابٌ لم ألقكم في الحياة، لكن كتاباتكم لامست روحي.
ما بين الحكمة والوعظ، بين الأدب والتأريخ، بين الفكر والتزكية، بين جزالة
اللفظ وجمال العبارة، تركتم لي طريقاً من نور، أسير فيه حين تتزاحم الظلال

بين القراءة والكتابة: ازدواجية الوعي

(البدء هو أهم جزء في أي مسعى، وهو الخطوة الأكثر شجاعة)

أفلاطون

ثمة توازن دقيق بين القارئ والكاتب في داخلي. أحياناً أقرأ بشغف الكاتب الذي يبحث عن صوت جديد، وأحياناً أكتب كقارئ لم يجد ما يُشبع نهمه. الكتابة ليست نقيضاً للقراءة، بل امتداد لها. أحياناً أشعر أنني أكتب لأقرأ نفسي من جديد. فالحقيقة لا تُمنح دفعة واحدة، بل تومض كوميض بعيد لا تراه إلا حين تتقاطع القراءة بالكتابة في لحظة صفاء نادرة. حينها، لا تعود الكلمات وسيلة، بل تصبح مرآة يرى فيها القارئ والكاتب ملاحظتهما المشتركة

ما لم يُكتب بعد...

ثمة كتب كثيرة لم أكتبها بعد، وثمة فصول تنتظر أن تنضج.
الذاكرة الأدبية ليست نهائية، بل هي رحلة دائمة.
كلما قرأت كتاباً جديداً، تغيرت خريطتي الداخلية.
كلما كتبت نصّاً، أعدت تعريف ذاتي.
ربما أهم ما في الأدب، أنه لا يقول لنا “كن مثل هذا”، بل يقول “اكتشف من
تكون”.



أدب الذاكرة وذاكرة الأدب

حين كتبت هذا الكتاب، لم أكن أؤرخ لقراءاتي فحسب، بل كنت أُعيد رسم حياتي.

منذ أول كتاب قرأته إلى آخر سطر كتبته، كانت رحلتي مع الأدب شبيهة بالرحلة مع النفس: طويلة، شاقة، لكنها جديرة بالعناء. فلتكن هذه الصفحات شاهداً على أن الكلمة لا تموت، وأن الأدب ليس ترفاً للنخبة، بل ضرورة للروح

الكتاب الذي غيرني

(حين تلتقي الكلمة بالروح)

كثيرة هي الكتب التي قرأتها، وعبرت بي كما تعبر الريح في نوافذ القلب،
لكن قليلاً منها من استقرت، وترك أثراً لا يُمحى.

وكان من بينها كتاب واحد، شعرتُ بأنه لم يطرُق باب فكري فقط، بل دخل
إلى قلبي بسكينة وضياء.

إنه كتاب صيد الخاطر لابن الجوزي.

وهو من أبلغ ما كُتِب في باب الموعظة والرفائق، يجمع بين صفاء الروح
وصدق التجربة.

فيه وجدتُ ما يشبه النور اللطيف، نوراً لا يعمي، بل يضيء الزوايا المعتمة في
الداخل.

لم يكن الوعظ فيه ثقيلاً، بل رقيقاً كما يدلّ اسمه.

كنت كلما أغلقت صفحاته أشعر بهدوء داخلي، كأن صوتاً حكيمًا يهمس لي:

“ما زال فيك خير كثير، فقط تأمل.”

كلماته لم تؤنّبني بل أيقظتني.

لم تخوّفني من الطريق، بل أرشدتني إليه.

رسمت لي ملامح قلب سليم، لا يضح بالذنب، بل يتطهّر منه بهدوء ويُقبِل

على الله بحبّ.

في “صيد الخاطر” وجدت اللغة البسيطة التي تخاطب القلب دون حواجز،
والحكمة التي لا تتعالى، بل تنزل لترافقك في يومك، وهمك، وخطواتك
المتردة.

ذلك الكتاب غيرني لأنه قربني من نفسي، ومن ربي، ومن الحياة أيضًا.
صار رفيقي في لحظات الانكسار، ومصدري للسكينة حين تضيق المسالك.
ومنذ ذلك اليوم، بدأت أبحث عن الكتب التي تُشبهه: كتب تنير، وتُصادق،
وتُربّت

(العزلة وطن للأرواح المتعبة)

إرنست همنغواي

العزلة ليست هروباً... بل هي العودة إلى الذات.
حين تكون وحيداً مع كتاب، فأنت في الحقيقة مع الآخر بأصفي شكل.
في لحظات العزلة، تشتدّ الحاجة إلى صوتٍ داخلي، والكتاب هو ذلك الصوت
الذي لا يخون.
كان أجمل ما في عزلتي الأدبية أنني تعرّفت على أناس لا يعيشون في مدينتي
ولا في زمني، لكنهم صاروا أقرب من الجيران.
ابن القيم، ابن الأثير، الطبري دوستوفسكي، الرافي، كونفشيوس،
المنفلوطي... كأنني زرتهم في بيوتهم الخاصة.

أوراقي القديمة:

البدايات الكتابية

عدتُ ذات يوم إلى دفاتري القديمة، تلك التي كتبت فيها أولى محاولاتي. قرأت نصًّا بعنوان “عبرات على الأوراق”. كنت أظنه آنذاك عميقًا. لكنني الآن أبتسم حين أقرأه. لم أضحك على ضعفه، بل ابتسمت لذلك الكاتب الصغير الذي كتبه... يكتب بصدق، لا يعرف حيل البلاغة، لكنه يعرف أن الأمر يجب أن يُقال. العودة إلى البدايات تجعلنا ندرك أن كل خطوة كُتبت بخطِّ مرتجف كانت تمهيدًا لما نخطّه الآن بثقة.

وهج الحكاية: سرديات شكّلت رؤيتي منذ أن وعيتُ على الحياة، لم تكن الحكاية مجرد تسلية تُروى، بل كانت مفتاحًا سحريًا يفتح لي أبواب كثيرة في رحلتي المعرفية. كل قصة قرأتها، وكل رواية عشت تفاصيلها، كانت أشبه بإزميل ينحت شيئًا في داخلي: فكرة جديدة، أو شعورًا خفيًا، أو زاوية رؤية لم أكن أعلم بوجودها.

كان السرد مأوى، ومرآة، ومحرضًا على التفكير. علّمتني الحكايات أن الإنسان لا يُقرأ من ظاهره، وأن الحقيقة كثيرًا ما تختبئ في الحكاية البسيطة التي تُروى على استحياء. بين سطور القصص تنمو البصيرة، وتشكل الحكمة، وتتسرب إلينا رؤى الوجود دون أن نشعر.

وفي عالمٍ تتصارع فيه الأصوات وتتعالى الشعارات، ظلّت القصة - في بساطتها وعمقها - هي المعلم الهادئ الذي يهمس بالحقيقة، لا يصرخ بها

1/ الأيام - طه حسين

سيرة ذاتية تفيض بالأدب الجم، والصبر النبيل، والتعلّق بالعلم لا لأجل المجد، بل لأجل النور.

تمنيت لو كتبتها، لما فيها من صمّت متواضع، وصدقٍ شفيف، وانتصار للإنسان على عجزه، بلا ضجيج ولا ضغينة.

2/ العبرات – مصطفى لطفى المنفلوطي

مجموعة قصصية تفيض بالرقّة والخلق، تُعلي من الوفاء والبرّ والإحسان، وتزرع في النفس نوعاً من الصفاء الأدبي النادر.

تمنيت لو كتبتها، لهذا النَّفس الطاهر الذي يجعل من كل قصة مرآة تهذب الروح وتوقظ الضمير.

3/ صوت من العالم الآخر – توفيق الحكيم

قصة رمزية عن العدالة، الضمير، والحياة بعد الموت، لكنها لا تدخل في الجدل العقدي، بل تُسلط الضوء على معنى المسؤولية في حياة الإنسان. تمنيت لو كتبتها، لهذا المزج النادر بين العمق والبساطة، بين القصة الخفيفة والمغزى الأخلاقي الثقيل.

إن أجمل ما في الحكاية أنها لا تفرض عليك قناعة، بل تهمس بها، وتدعك تكتشفها وحدك. إنها لا تقودك كما يفعل الواعظ، بل تمضي بجانبك كصديق حكيم، يشير إلى الطريق دون أن يدفعك إليه.

ولعل السر في خلود بعض السرديات ليس في جمال لغتها فحسب، بل في قدرتها على أن تكون مرآة للروح في لحظات التشكّل، ومصباحاً صغيراً في نفق الأسئلة الكبرى.

وهكذا، ظل وهج الحكاية يشعل في داخلي شموعاً صغيرة... كل شمعة منها كانت رواية، أو قصة، أو سطرًا من حوار عابر، لكنها في مجموعها رسمت ملامح رؤيتي للعالم، كما أراد لها الأدب أن تكون: هادئة، صادقة، وبقية

4/ الثمن – علي أحمد باكثير

هناك لحظات في الحياة تزن فيها القيمُ أكثرَ من الذهب، وتُعرض فيها المبادئ على طاولة المساومة، ويُقال لصاحب الضمير: “بِعْ، وخذ الثمن!”.

وفي قصة “الثمن”، قدّم لنا علي أحمد باكثير مشهدًا إنسانيًا صامتًا، لكنه يضجُّ بالصراع الداخلي، حيث لا نسمع صوتًا إلا صوت الضمير وهو يتردد بين الطمع والنزاهة، وبين العطاء والابتذال.

لم تكن القصة عن بطل خارق، بل عن رجل عادي، رُميت في طريقه فرصة أن يتربّح على حساب موقف، لكنه آثر خسارة الصفقة على خسارة نفسه.

حفزتني القصة لأن باكثير كتبها بلا عظُمَة مصطنعة، بل بروح الإنسان الذي يخاف من أن ينكسر من الداخل، ولو لم يرَه أحد.

وكانت رسالة القصة: أن الثمن الحقيقي ليس ما يُدفع لك، بل ما تدفعه من كرامتك وأنت تساوم.

5 / الشهيد المجهول – توفيق الحكيم

أحيانًا يكون البطل في القصة بلا اسم، بلا لافتة، بلا نشيد، لكنه يترك في القلب أثرًا لا يُمحى.

في “الشهيد المجهول”، لم يحدث أن دوّت معركة، ولا أن ارتفع علم، بل كانت المعركة مع النسيان واللامبالاة، وكان الانتصار في أن تفعل الخير خالصًا، ولو لم يذكرك أحد.

لامس توفيق الحكيم في هذه القصة شيئًا عميقًا في النفس، ذلك الحنين لأن يكون لما نفعه معنى، ولو لم يُحتَفَ بنا.

حفزتني لأنها تُعلي من شأن البطولة الصامته، تلك التي لا تُصوّر، ولا تُصَفَّق لها، لكنها تُغيّر العالم من حيث لا يدري العالم.

إنها قصة تقول: ليس كل بطل مشهور، وليس كل من نُسي، غاب أثره

عن الكتابة بصوت داخلي

أحياناً أشعر أنني لا أكتب، بل أستمع.
كأن صوتاً داخلياً يملئني عليّ ما أقول.
لا أعرف مصدره، لكنه حقيقي.
الكتابة بصوت داخلي هي نوع من السكون.
حين أكتب بهذه الطريقة، لا أكون واعياً للأسلوب، بل أترك النص ينمو كما
ينمو العشب من الأرض: بهدوء، وأصالة.
كل كاتب له “صوته” الذي لا يسمعه أحد سواه.
حين تجده، تعرف أنك بدأت تكتب حقاً.

ومضات خالدة وكلمات قيلت لتبقى

بل وصنعت طريقاً:

كما أن القصائد صنعت أثراً، كذلك هناك كلمات من حكماء الكلمة، عبر العصور، أصبحت لي بمثابة “قصائد موجزة”.

في زمنٍ امتلأ بالضجيج، ما أحوجنا إلى من يهمس بالحقيقة بلغة الفضيحة. ليست الحكمة ما يُجَمَّل الكلام، بل ما يُهذَّب السلوك. وما بين أفواه الأئمة، ودفاتر الفلاسفة، ومرايا الصالحين، وخواطر المفكرين، وُلدت جملٌ صغيرة... لكن أثرها كان واسعاً كالحياة نفسها. إنها كلمات لا تدعو إلى معارك، بل إلى مراجعة. لا تستنهض حماس الجموع، بل تستفز يقظة الضمير.

وهذه بعض المقولات التي بقيت في وجداني:

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ثمرة التواضع المحبة، وثمره الكبر المقت.

في هذه الكلمات الموجزة، يكشف علي رضي الله عنه عن معادلة الأخلاق العميقة:

لا تُقاس القلوب بما نملك، بل بما نُبديه من خُلُق.

فالتواضع يجمع القلوب دون أن يسعَى، والمتكبر يُنْفَرها دون أن يدري

أكرموا عزيز قوم ذل، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين الجهال.

هذه ليست مجاملة، بل أخلاق الرحمة: أن تحفظ الكرامة حيث سقطت،
وتعين ما انكسر في الناس.

عفو المقتدر من أكرم الفضل.”

الخُلُق الحق لا يُختبر حين تُظلم، بل حين تقدر على الرد وتختار أن تسامح.
الناس ثلاثة: عالمٌ ربّاني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل
ناعق.”

إن النجاة في طلب العلم لا في الجدل، في التهذيب لا في التشهير.

وقال أيضاً: من اعتمد على علمه ضل ومن اعتمد على عقله اختل ومن
اعتمد على ماله قل ومن اعتمد على جسمه كل ومن اعتمد على سلطانه ذل
ومن اعتمد على الله فلا ضل ولا اختل ولا قل ولا كل ولا ذل
♦ “من اعتمد على علمه ضل”

العلم نور، لكنه إذا تحوّل إلى غاية بدلاً من أن يكون وسيلة إلى الله، انقلب إلى
غرور.

الاعتماد على العلم وحده يُضل، لأن العلم لا يُنير الطريق ما لم يُقَم القلب
على تقوى.

كم من عالمٍ أعجب بعلمه، فزَيّن له الشيطان طريقاً باطلاً يبدو مستقيماً.
كأنّ علياً يقول: العلم لا يهدي إلا إذا صحبه هدى، ومن اتخذ العلم ركناً
دون الله، زلّت به قدمه، ولو حفظ ألف كتاب.

“ومن اعتمد على عقله اختل”

العقل هبة، لكنه محدود، ومُحاط بقيود الزمان والمكان والهوى والقصور. فمن ظن أن عقله قادر على إدراك كل شيء، انفصل عن الوحي، فاضطرب ميزانه، واختل فكره، وتخبّط في المتاهة وهو يظن أنه على هدى. في هذه العبارة سخريّة خفيّة ممن يعبد عقله، كأنه يقول: “من جعل عقله إلهه، تركه الله لتخبّطه.”

“ومن اعتمد على ماله قلّ”

المال، وإن كثّر، لا يلبث أن ينقص بإنفاق أو مرض أو فقر أو ورثة. والأدهى: أنه يقلّ في برّكته لا في عدده فقط.

فمن جعل المال موضع اتكاله، فقيرٌ وإن امتلأ بيته ذهبًا. فكأن عليًّا ينبه: المال لا يدفع قلقك، ولا يمنحك الطمأنينة، بل أنت خادمٌ له حتى تفنى.

“ومن اعتمد على جسمه كلّ”

القوة الجسدية فانية، والجسم مهما بلغ شبابه وفتوّته، فإنه يكلّ، يضعف، يمرض، ويذوي.

ومن جعل جسده موطن ثقته، خذله الجسد في لحظة هزال أو مرض أو شيخوخة.

البلاغة هنا في “كلّ”، فيها تقصير نفسي قبل الجسدي، كأن الاعتماد على الجسد يُورث خمولًا داخليًا، لا مجرد تعبٍ عضلي.

“ومن اعتمد على سلطانه ذلّ”

السلطان في ظاهره عز، لكنه في باطنه أكثر الأبواب إلى الذل؛ لأن صاحبه عبدٌ لحسابات الحياة، وتقلبات الولاء، وتبدل المواقف.

ومن ظن أن العز في الحكم، عاش أضعف الناس حين يرحل عنه المنصب. فكأن علياً يقول: السلطان لا يُعز من داخله خواء، بل يزيده ذلاً حين يُعريه الزوال.

“ومن اعتمد على الله فلا ضل ولا اختل، ولا قل ولا كل، ولا ذل”
هنا الخاتمة الجميلة، وفيها قلب الميزان:

الاعتماد على الله وحده هو الذي يُخرجك من ضلال العقل، واختلال الفكر، وفقر المال، وتعب الجسد، وذل السلطان.

وفي تكرار “لا” مع كل ضعف، بناء بلاغي بديع من نفي النقص في كل أبعاده الخمسة، ليؤكد أن الاتكال على الله يعصم الكيان الإنساني كله: فكراً، روحاً، مالاً، بدنًا، ومكانة.

هذه الحكمة تحطم أصنام الإنسان الحديث:

من جبروت العقل إلى تواضع الإدراك

ومن عبادة المال إلى فقر النفس

ومن نشوة القوة إلى هشاشة البدن

ومن وهم الجاه إلى خواء السلطان

ثم تعيد بناء الإنسان من جديد:

إنك لا تساوي شيئاً حين تتكى على ما يزول، لكنك تصير كل شيء حين

تتوكل على من لا يزول.

كلام عليّ رضي الله عنه ليس وعظاً، بل هندسةٌ دقيقةٌ لبناء الثقة الحقيقية.
إنه يهدّد أركان الاتكال الزائف، ثم يشيد صرحاً واحداً:
“الاعتماد على الله هو الباقي، وما سواه وهم وإن بدا متيناً.

ابن حبان - رحمه الله

الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمسُ الجليد، والخلق السيء يُفسد العمل كما يُفسد الخل العسل.”
منطق جميل: ليست الأخلاق ترفاً، بل ضرورة لحفظ العمل، كما تُحفظ الثمرة من الفساد.

ابن القيم:

لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء، كما لا يجتمع النار والماء.”
في زمان البحث عن التصفيق، يُذكّرُك أن الإخلاص في الخلق يبدأ من صدق النية.

من عرف الله اشتغل به عن نفسه، ومن أحبّه آثره على غيره.”

كثير من الخلق إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فلو عرف المرء ربه حق المعرفة لارتاح في دنياه راحة ما بعدها راحة

جعفر الصادق

من ساء خلقه عدّب نفسه.”

في اختزال موجز، يذكّرُك أن الأخلاق ليست لصالح الناس، بل راحة لقلوبهم .

حاتم الأصم - رحمه الله

تعلمت من أستاذي ثلاثة أشياء: السكوت عما لا يعنيني، وإكرام من لا يعرفني، والإعراض عمّن يؤذيني.”

أخلاق لا تُعلّم في الكتب، بل تُرى في السلوك وتُورث بالصمت.

من سكت فسَلِم، كان كمن نطق فغنم.”

حكمة تزن الكلام بميزان العقل والدين

ثابت بن قرّة:

راحة الأبدان في قلة الطعام وراحة اللسان في قلة الكلام وراحة النفس في

قلة الآثام وراحة القلب في قلة الاهتمام

“راحة الأبدان في قلة الطعام”

ليست دعوة إلى الجوع، بل إلى التوازن.

الطعام هنا رمز للشهوة الجسدية، وكلما اشتد سلطان الجسد، انطفأ وهج

الروح.

فالجسد المرهق بالطعام المتخّم، يشبه الأرض المبتلعة للمطر حتى الفيض؛ لا

تنبت ولا تهدأ.

قلة الطعام تروّض الجسد، وتجعله خفيفاً، قابلاً للصعود لا الهبوط، ولليقظة

لا الخمول. ولهذا قال الأطباء والفلاسفة: امتلاء البطن مقبرة العقل.

وفي البلاغة، قدم الجملة على سائر الجمل لأنه بدأ من ظاهر الإنسان نحو

باطنه، فالجسد هو الغلاف، وهو موضع العمل، فإن استراح استقامت بقيّة

المقامات.

“راحة اللسان في قلة الكلام”

الكلام سيف ذو حدّين: به تُبنى القلوب، وبه تُهدم. واللسان حين يُطلق بغير قيد، يتحول من نعمة إلى فتنة. فنقل الكلام لا يُقاس بالحروف، بل بأثره في الضمائر. وكلما خفّ اللسان، ثقلت الهيبة.

وفي قلة الكلام راحة من التكلّف، والزلل، والرياء، وكأنّ ثابتًا يقول: إن اللسان المتقشّف أحكم من اللسان المترّف.

ومن زاوية فلسفية، فإن كثرة الكلام تعبّر عن اضطراب في الداخل، وكأنّ الإنسان يحاول أن يملأ الصمت الخارجي ليهرب من صراخه الباطني.

“راحة النفس في قلة الآثام”

الآثام لا تُتعب الجوارح فحسب، بل تُثقل النفس، وتكدّرهما، وتقطعها عن صفائها الفطري.

النفس بطبيعتها تميل إلى الصفاء، لكنها إذا كثرت ذنوبها، تشبه الماء المعكّر، لا يعكس نورًا، ولا يروي ظمأً.

هنا نجد بعدًا روحيًا عميقًا: فكلما خفّ حمل المعصية، خفّت الروح، واستراحت النفس.

ولهذا فإن التوبة ليست مجرد غفران، بل تحرير للنفس من أثقالها، كأنها تُنزع من قيودٍ خفيّة كانت تُكبّلها.

“راحة القلب في قلة الاهتمام”

هذه هي ذروة الحكمة.

الاهتمام” هنا ليس بمعنى المسؤولية النبيلة، بل بمعنى الانشغال الزائد،
التعلق، التفكير المفرط، اللهاث خلف الأشياء، والقلق المُمض.
فالقلب إذا كثرت علاقته، تشتت. وإذا قلّت، استراح.
كأنّ ثابتاً يقول:

لا تزد من تعلقك بما لا تملك زمامه، فإن القلب لا يحتمل إلا حملاً واحداً:
حباً واحداً، شوقاً واحداً، رجاءً واحداً.
وقلة الاهتمام ليست زهداً سلبياً، بل نوع من التحرر الداخلي من التورّط في
ما لا ينفَع، ولا يُعَيِّر.

في الجمل الأربع تنزل متدرّج من الظاهر إلى الباطن:

البدن → اللسان → النفس → القلب

وكأن كل جملة تفتح باباً إلى ما بعدها، فمن أتقن تربية الجسد، انتقل إلى
اللسان، ثم زكّى النفس، ثم صفّى القلب، فاستراحت الروح كلها.
هذا القول برمته خلاصة “الزهد الحكيم” لا “الزهد المتكلّف”.
فيه نكهة الطب، ولمعة الفلسفة، وعذوبة الأدب، وصفاء الإيمان.
كأنه ينقي الإنسان من كثافة الدنيا، ويعيده إلى فطرته الأولى: خفيفاً، صافياً،
هادئاً، عميقاً

الأصمعي

قيل للأصمعي بم يتجمل المرء في دنياه؟ قال: بعلم يرفعه”

قيل: فإن لم يكن له علم؟ قال: فيمال يستره

فإن لم يكن له مال؟ قال: فبادب يوارى به سواته”

فإن لم يكن له أدب؟ قال: فصاعقةٌ من السماء تحرقه!“
قيل للأصمعي بَم يتجمل المرء في دنياه؟ قال: بعلم يرفعه“
العلم أول التجمل، لأنه لا يجمل الهيئة، بل يجمل الجوهر.
ليس التجمل في بزة أنيقة أو كلام منمق، بل في عقل يُحسن التمييز، ونظرٍ
يدرك المآلات.

العلم لا يُضيف على الإنسان شيئاً خارجياً، بل يكشفه كما هو، ثم يرفعه فوق
ما هو.

والرفع هنا ليس رفعة الجاه، بل رفعة القيمة؛ أن يكون المرء وزناً لا صوتاً،
و”جماله في ذهنه لا في جيبه“.

“فإن لم يكن له علم؟ قال: فبمال يستره“
وحين يُفقد العلم، يُطلب الستر، لا الرفعة.
المال هنا ليس للتفاخر، بل للتستر، وكأن الجهل عُرِي لا يُغْطيه إلا شيء من
الزينة الخارجية.

في هذا القول اعتراف بأن المال لا يرفع، بل يستر فقط؛ يحجب النقص، ولا
يملاه.

كأن المال قناعٌ يجمل الهيئة، لكن لا يمنح الهوية.
ولذا قال “يستره” لا “يرفعه”، إشارة دقيقة إلى أن المال زينة لا قيمة.

“فإن لم يكن له مال؟ قال: فبأدب يُواري به سوءته“
هنا يقترب الأصمعي من جوهر “الإنسانية”.

الأدب، في غياب العلم والمال، يصبح حيلة العاقل النبيل، وسلاح الفقير الشريف.

الأدب لا يشتري المجد، لكنّه يُكسب التقدير.

لا يرفع رأسك، لكن يمنع انحناء ظهرك.

وحين قال "يؤاري به سواته"، استعار صورة من لباس آدم بعد السقوط، كأن الأدب لباس الفضيلة الأخير لمن لم يملك غيره.

"فإن لم يكن له أدب؟ قال: فصاعقة من السماء تحرقه!"

هنا تبلغ العبارة ذروتها: لا علم، لا مال، لا أدب؟ إذاً لا مبرر للبقاء.

هذه الجملة ليست دعوة للهلاك، بل صرخة غضب حضاريّ: إن الإنسان إذا خلا من المعنى، والقيمة، والخلق، فما هو إلا جثة تمشي، تستحق أن تمحى لا أن تُذكر.

كأن الأصمعي يقول: الإنسان بلا عقل، ولا كرم، ولا تهذيب، ليس إلا عالة على الأرض.

الصاعقة هنا مجاز عدالة، لا غضب؛ إنها تطهير لا انتقام.

العبارة كلّها ترسم هرمًا للقيمة الإنسانية، قاعدته الأدب، وأعلاه العلم.

فإذا سقط الإنسان من قمته، فليستر عجزه بما بقي له من خلقٍ أو فضل.

أما إن خلا من كل ذلك، فلا ملامة إن سقط من عين الحياة.

الناس تُعرف بعلومها، تُحتمل بأموالها، تُحترم بأدبها، وتُنسى إذا فقدت الكل

حاتم الأصم:

لا تغترّ بمكانٍ صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، ولقي فيها آدم ما لقي

ولا تغترّ بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي
ولا تغترّ بلقاء الصالحين، فلا أحد أصلح من النبي ﷺ، ولم ينتفع بلقائه
أعداؤه والمنافقون

كلام حاتم الأصم هذا ليس وعظاً تقليدياً، بل هو قبلة وعي، تُفجّر في
النفس أوهام الركون إلى المظاهر، وتُحطم تماثيل الغرور المزخرف، لتُبقي
الإنسان واقفاً عارياً بين يدي الحقيقة:

أن النجاة ليست في “المكان”، ولا في “الشكل”، ولا في “الصحبة”، بل في
“الصدق الخالص، والثبات في لحظة الاختبار”.

دعنا نقرأه جملة جملة، بنفسٍ أدبي فلسفي:

“لا تغترّ بمكانٍ صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، ولقي فيها آدم ما لقي”
الجنة نفسها لم تكن مانعاً من السقوط، فكيف نغترّ بمسجدٍ أو حلقة علم أو
بقعة أثر؟

آدم، في الجنة، وفي مقام الاصطفاء، ومع ذلك زلّ حين غفل لحظة.
المكان، مهما بلغ طهره، لا يمنح الإنسان العصمة؛ بل قد يكون فتنة، إن لم
يكن فيه قلبٌ يقظ.

وكأن حاتماً يصرخ في وجهنا:

ليس كل ساكن في القصر أميراً، ولا كل مصلٍّ في المسجد ولياً.

“ولا تغترّ بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول العبادة لقي ما لقي”

إبليس، سجد دهوراً، ومع هذا سقط لحظة أن انتفخ بالعبادة.

فلم تكن المشكلة في العبادة، بل في النظر إليها، وفي العُجب بها.

وهنا درس مهم جداً:

قد تتحوّل العبادة من جسر إلى الله، إلى جدار يحجب عن الله، إن رآها العبد من نفسه لا من فضل ربه.

العبادة ليست تراكماً، بل تطهّرُ دائم من الكبر والرياء.

“ولا تغترّ بلقاء الصالحين، فلا أحد أصلح من النبي ﷺ، ولم يتنفع بلقاءه أعداؤه والمنافقون”

هنا يبلغ البيان ذروته:

لقاء النبي ﷺ، نبع النور، لم يُنقذ من في قلبه مرض.

فما ظنك بمن يزور العلماء، أو يُجالس الزهّاد، أو يُقبّل رأس شيخٍ صالح، وهو لم يُغيّر ما بنفسه؟

الصحبة لا تُغيّر القلوب، ما لم تكن النفوس مستعدّة للتلقّي.

الأنوار لا تنفع من أغمض عينيه، ولا البررة يطهرون من لم يغسل قلبه من دنس النفاق.

حاتم الأصم، بلّغته المتقشفة الصافية، يُعيد تشكيل موازين الإنسان: المكان ليس ضمناً، بل قد يكون فتنة.

العبادة ليست حبل نجاة، ما لم تكن عبودية خالصة.

الصحبة لا تشفع، إن لم تتجاوب النفس مع النور.

كأنّه يقول:

أيها السائر إلى الله، لا تكن سائحاً في الأماكن، ولا مهووساً بعدد الركعات، ولا معجباً بالوجوه الطيبة من حولك.

بل انظر إلى قلبك: هل فيه صدق؟ وهل إذا دُعيت إلى الحق أجبت؟”
لاحظ الجمل الثلاث: كلُّها نفيٌ لتحقيق، تبدأ بـ “لا تغترّ”، وتنتهي بـ “فقد
كان كذا”، وهذا الأسلوب يسمى: إبطال الحجة بنقض المثال الأقصى.
فحاتم لا يجادل بالأقوال، بل بالوقائع العظمى:

آدم في الجنة

إبليس في العبادة

الكفار مع النبي ﷺ

كلها اقتربت، ومع ذلك زلَّ أصحابها حين اختل الصدق أو اضطربت النية.
لا تَرَكْنِ إلى المكان، فالمكان لا يُطَهَّرُكُ.
ولا إلى العمل، فالعمل لا يُبرِّئُكُ.
ولا إلى الصحبة، فالصحبة لا تنقذك .

إنما يُنقذك “قلبٌ سليم”، يحمل الخشية لا العُجب، والصدق لا الغرور

الرافعي:

إذا لم تزد على الحياة شيئاً كنت أنت زائداً عليها.”

كأن الرافعي هنا يضع أمامك تحدياً:

لا تكن رقماً، كن أنثراً.

المنفلوطي:

البلاغة ليست أن تقول الشيء الكثير بكلمات قليلة، بل أن تقول الشيء
العظيم بكلمة صادقة.”

وقد تعلمت منه أن الأدب ليس زخرفاً، بل صدقاً وشرفاً للمعنى.

ابن حزم الأندلسي

الحق لا يُعرف بالرجال، بل يُعرف الرجال بالحق.”
تقرير واقعي واضح لمعيار التمييز بين الحق والباطل.
ما علمتُ أحدًا أُلزم للعدل من رجلٍ غضب على رجل، فذكره بخير.”
خلق نبيل من أخلاق النبلاء في المحن والخصومات.

كونفوشيوس

قبل أن تشرع في إصلاح العالم، سرح شعرك، وضبط بيتك.”
نقد ناعم لأولئك الذين يصيحون باسم الأخلاق دون أن يمارسوها على
أنفسهم.

من لم يعرف حدود الكلام، أساء الفهم وأساء من ذلك، أساء التأثير.”
لا يكفي أن تقول حقًا، بل يجب أن تُجيده، فالكلمة الحشنة تُطفىء النور.
الفضيلة لا تكون كاملة ما لم تصحبها اللياقة.”
تهذيب المعاملة جزء من تهذيب الموقف، فالعقل وحده لا يكفي، ما لم يرافقه
ذوق.

من يسعى إلى إصلاح نفسه، يصلح المجتمع من حوله.”
حكمة اجتماعية أخلاقية، لا تعارض فيها مع عقيدة أو شريعة.
وهي قريبة في عمقها من مقولة مارك توين لا شيء يحتاج إلى إصلاح أكثر من
عادات النفس

ليست الفضيلة أن لا تخطئ، بل أن تعرف خطأك وتصلحه.”
توجيه تربوي معتدل، يكرّم التوبة والاعتراف.

جولد سميث:

ليس الشأن في ألا تسقط، بل في أن تنهض كلما سقطت.”
وهذا ما جعلني أوقن أن الثبات أجمل من النصر، وأن النهوض قيمة لا يعرفها إلا من جرب السقوط.

سقراط

اعرف نفسك، تكن أذكى الناس.”
منطلق الأخلاق الحقيقي هو أن تواجه نفسك بصدق، لا أن تراقب سلوك غيرك.

ليست الفضيلة أن تعفّ وأنت لا تقدر، بل أن تقدر وتكفّ.”
قيمة الأخلاق تُقاس لحظة الامتحان، لا عند العجز.

أفلاطون

الجهل أصل كل شر.”
الفكرة هنا تمهد لمبدأ التربية والتعليم لا لتأليه العقل.
نيتشيه

قوة الأخلاق أكبر من قوة العنف.”
ليست الأخلاق ضعفاً، بل طريق من صخر، لا يمشيه إلا القويّ حقاً.
المهاتما غاندي

ما أجمل أن يبدأ الإصلاح من الداخل، لا من النداء.

في هذه العبارة، يرسم غاندي خطأً دقيقاً بين “الظاهر” و”الجوهر”، بين من يصدق بالإصلاح على منابر الكلام، وبين من ينقح قلبه في صمت، ويهدّب ضميره في خفاء.

الإصلاح الحقيقي لا يعلو من صوت، بل ينبثق من ضمير. ليس صنيع الداعية بكثرة صياحه، بل بثقل جوهره. النداء، مهما صدق، قد يصبح صدئاً خاوياً إن لم يكن ينبع من تجربة صامتة، من معركة داخلية خاضها المرء ضد نفسه أولاً.

النفس، حين تُظهِر من هوى الرياء، وتُغسل بصدق التوبة، تُصبح هي المنبر. الإصلاح الذي يبدأ من الداخل هو كالنور؛ لا يحتاج أن يُنادى، بل يُرى. أما ذلك الذي يبدأ من الخارج، فهو كالصوت؛ قد يُسمع كثيراً، ثم يضع. غاندي هنا لا يهاجم النداء، بل يضعه في مكانه الطبيعي: تابعاً لا قائداً. فالكلمة حين تسبق السلوك، تصبح خيانة للمعنى.

أما حين يسبق السلوك، فالكلمة تصبح انعكاساً نقيّاً لحقيقة تُعاش لا تُدعى. كن أنت التغيير الذي تريد أن تراه في العالم.”

هذه العبارة ليست مجرد دعوة أخلاقية، بل بيان وجودي يرسم علاقة الإنسان بالعالم.

غاندي لا يقول: “اسع لتغيير العالم” فحسب، بل يقول: “ابدأ بنفسك، فأنت العالم.” الفكرة هنا تنقلك من موقع المتفرج إلى موقع الفاعل، ومن التذمّر إلى البناء، ومن المثل العليا المجردة إلى التجسيد الحيّ في الذات.

العالم في هذه النظرة ليس شيئًا خارجيًا ينفصل عنك، بل هو مرآة تمتد من داخلك.

كل ظلم تراه، كل فساد، كل قبح، لا يُزال بالرفض وحده، بل بأن تهدمه في نفسك أولاً.

إن كنت تبغض الكراهية، فاحذر أن تكره. وإن كنت تمقت الكذب، فلا تجامله في ذاتك.

أنت التغيير: لا بفعل خارق، بل بصدق يوميّ، تربي به نفسك كما يربي البستاني أرضه، بعناية وصبر وهدوء.

وهذا القول يحمل أيضًا ثورة ناعمة على العجز والتسويق.

فكأن غاندي يقول: لا تنتظر الظروف، ولا تلج على العالم أن يتغير، بل كن أنت البذرة، وليكن العالم هو الحقل.

إن اجتمع الشرهان، بدت الحكمة كلّمها تدور حول محور واحد: أن الإصلاح لا يُستورد، بل يُستولد.

وأن التغيير ليس صوتًا في الخارج، بل خلقٌ ينبت أولاً في الظل
أقوال متفرقة ذات أثر عميق

لا تكن لطيفاً لثبّت شيئاً، كن لطيفاً لأنك كذلك.”

(منسوبة إلى ماركوس أوريليوس)

الأخلاق الجيدة هي الفلسفة التي لا تُدرّس، بل تُمارس.”

(برتراند راسل)

الصدق لا يحتاج إلى مؤيد، وحده كافٍ ليبقى.”

(حكمة شرقية متداولة)

وهكذا، لا تصنع العبارات أثرًا حين تُقرأ، بل حين تسكن القلب وتُعيد بناءه.

وقد كانت هذه العبارات، ليست فقط أدبًا أعجبت به، بل كانت مفاتيح لفهم الحياة، وتبديل نظرتي للأشياء، وسُلمًا تسلّقته نحو نفسي ليست هذه العبارات شعارات تُعلّق على الجدران، بل مرايا تُعلّق في الداخل.

كل كلمة فيها تحملك إلى عمق، وتعود بك إلى ذاتك.
والأجمل: أنها لا تدينك، بل تعلّمك، لا تأمرك، بل تُرشدك بلطف.
إنها أصوات صامتة، لكنها حين تدخل قلبك، تترك فيه أثرًا أبقي من الصراخ

فصاحة بلا صخب، وهيبة بلا سيف

رجلٌ تمنيت رؤيته: الأحنف بن قيس
قدوتي الأولى، والنور الذي أقتفيه، هو محمد ﷺ، وخير من تاقت روعي
للقائه بعده هم الأنبياء والصحابة، أولئك الذين غيروا وجه التاريخ
بنورهم، ورفعوا راية الحق بأرواحهم.
لكن إن استثنينا الأنبياء والصحابة، فلا أحد يملأ مكان التمنيّ عندي مثل
الأحنف بن قيس.

ذلك الرجل الذي جمع بين الحلم الذي يُطفئ النيران، والفصاحة التي لا
تحتاج إلى زخرف، والوقار الذي يُذل به العتاة دون سيف.
عاش بسيادة أخلاقية لا تزهو، وتقدّم الناس لا بمنصب، بل بهيبة أدب
واتزان عقل.

كان الأحنف يقول: “وجدت الحلم أنصر لي من الرجال، فصرتُ أحتمله
حتى صار عادةً لي.”

ويقول: “إني لأجد من الحلم ما لو كان بين الجبلين لهدأهما.”
كثيرون امتلكوا سيفًا يفرض الصمت، لكن الأحنف امتلك صمتًا يُذل
السيف.

قيل له يوماً: ما بألئك لا تغضب؟
قال: “إني لأعدّ الغضبَ ضعفاً، وإن القويّ هو من يملك نفسه عند
الغضب.”

وهو بذلك يستشهد بحديث النبي ﷺ

كان إذا مشى بين قومه، خفت صوتهم احتراماً، لا خوفاً، وكان إذا تكلم أصغوا كأن على رؤوسهم الطير.

في زمن كانت السيادة فيه للبطش، اختار الأحنف طريق الحكمة. وفي عصر كثر فيه المتشدقون، أثر أن يتكلم قليلاً، ليكون لقوله وزنٌ حين يتكلم.

لم يكن صحابياً، لكنه تتلمذ على أيديهم، وشهد عصرهم، وتأدّب بأدبهم.

وقلّ أن تجد رجلاً من التابعين بلغ ما بلغه من سؤدد الأخلاق، وصدق الاتزان، وبلاغة الصمت الناطق.

إني أجد نفسي مشدوداً إلى شخصه كما يُشدّ العطشان إلى نبع نادر في صحراء مزدحمة بالضجيج.

حين تقرأ سيرة الأحنف بن قيس، لا تشعر أنك أمام رجل من ورق، بل كأنك تقرأ عن مدرسة كاملة في السياسة والصبر والحكمة.

قيل عنه إنه لم يرَ ضاحكاً ملء فمه قط، ولا غضبان قط، ولا مشتكياً من الزمان قط، وكانّ طباعه حُلقت من ماء بارد.

مشهد الحلم

دخل رجلٌ على الأحنف فشتمه وأساء إليه، فلم يرد عليه بكلمة.

فلما انصرف، قال له قومه: “ما منعك أن ترد عليه؟”

فقال: “علينا أن نحفظ حلمنا كما نحفظ أموالنا، هذا رجل سفه علينا، فإن أجنبنا كنا مثله، وإن سكتنا عنه سقط وحده.”

ياله من اتزان! ويا لها من سيطرة تامة على النفس!
في زمنٍ كان يُظن فيه أن الصمت ضعف، جعل الأحنف من الصمت سطوة.
مشهد الهيبة

كان إذا دخل على الخليفة، أو على مجلسٍ من القوم، خفت الأصوات
وتراجع الجدال،
وكان من هيبته يُقال: “إنه يُؤدّب الناس بمجرد حضوره.”
مقولات خالدة له

- “كفى بك علمًا أن تخشى الله، وكفى بك جهلاً أن تعجب برأيك.”
- “من لم يصبر على كلمة سمع عشرًا.”
- “والله ما شيء أبلغ في دفع الأذى من الحلم.”

لو اجتمع في رجلٍ: حكمة لقمان، وصبر أيوب، وفصاحة عليّ، لما بعد عنهم الأحنف بن قيس.

تمنيت لو رأيت، لا لأسأله، بل لأتعلّم من صمته، ولأرى كيف يكون الحلم لباسًا وهيئةً، لا مجرد خُلُق محفوظ في الكُتب.

خطيبان من العرب: أكثم بن صيفي وقس بن ساعدة - صوت الحكمة
ونبض الفصاحة

في أفق البيان العربي، تلالأت أسماء وضيئة، وسطعت في الجاهلية أضواء
سبقت شمس الإسلام .

ومن بين أولئك، وقف رجالان كأنما جُبلًا من الحرف الناطق بالعقل، وسُقيا
من نبع التأمل العميق: أكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة .

لم يكونا مجرد خطيبين، بل كانا وميضًا حكمية في صحراء التيه.

أكثم بن صيفي: صوت التجربة وحكمة السنين

أحد حكماء العرب في الجاهلية، وكان يُقال له “أعقل العرب.

ما يميّز أكثم، أنه لم يكن خطيبًا فحسب، بل كان صاحب فكرٍ أخلاقي
عميق، يربط التجربة بالحكمة، ويصوغ الحياة في قوالب القول البليغ. ومن
أقواله التي تجري مجرى الأمثال:

“من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ومن قلت مبالاته كثر أعداؤه.”

وقال أيضًا:

أفضل المروءة اجتناب الريبة، وأكرم الشيم صدق اللقاء، وأفضل العقل
معرفة الإنسان نفسه.”

إن هذه الأقوال ليست مجرد نصائح اجتماعية، بل هي مرآة لعقلٍ تجوّل في
دروب الحياة، وتجرّع مرّ التجارب حتى نضح بالحكمة.

كان أكثم يرى في ضبط النفس وتهذيب الطبع أساسًا لحياة راقية، وكأنه يُمهّد
بروحه لمجيء الإسلام، حيث الكلمة موقف، والعقل ضوء هداية.

قس بن ساعدة: نبوغ الفكر ورسالة العبارات
أما قس بن ساعدة، فقد كان فيلسوفاً عربياً سابقاً لعصره.
وقف يوماً يخطب في سوق عكاظ، والناس تائهون بالعصبية، فقال:
أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل
ما هو آتٍ آتٍ...”
ثم رفع نظره إلى السماء وقال:
آيات تلوح، وظلمات تروح، والليل داغ، والنهار ساج، والسماء ذات أبراج،
والأرض ذات فجاج... يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء
والأجداد؟...”
كلماته تهز سامعها، لا لأن فيها زينة بلاغية فقط، بل لأنها مشبعة بروح
التوحيد والتأمل في المصير، وترتو إلى ما وراء الحس.
لم يكن يخطب ليهي، بل ليوقظ.
إن قسًا هو نموذج للعقل الذي تجاوز الوثنية قبل أن تُبعث الرسالة، وكانت
خطبه، على قصرها، بذور توحيد في أرض لا تزال عقولها تتيه خلف
الأصنام.

لقاء الحكمة والتجلي

ربما لم يلتقِ أكثم بقس، وربما لم يعرف أحدهما الآخر، ولكن في ثنايا كلماتهما، التقت أرواحُ العقل بالتجلي، وامتزج الخطاب الفلسفي بالاستعداد الروحي.

وها أنا أكتب شيئاً عنها بعد أكثر من ألف عام، لا لأحيي الأسماء، بل لأُصغي مجدداً لتلك الأصوات التي كانت تبذر النور في زمن الظلمة، وتبشر بفجر لا يعرفونه، ولكنه يشواق إليهم.

المدارس الأدبية في ذاكرتي

في كل حقبة من حقب الأدب العربي الحديث، كانت المدارس الأدبية تظهر لتعبّر عن روح العصر وهموم الإنسان، وتقدم جماليات مختلفة تسعى إلى تجاوز السائد أو ترميمه أو إعادة تحفيزه.

لم تكن هذه المدارس مجرد ترف فني، بل كانت صدئاً لتحولات اجتماعية وفكرية عميقة، وقد عايشْتُ هذا التحول في قراءاتي، وتأثرت ببعض رموز تلك المدارس، فأحببت أن أذكر أثرهم في هذا الفصل.

المدرسة الكلاسيكية (الاتباعية)

نشأت هذه المدرسة في ظل تمسك الأدباء بالنموذج الشعري القديم، والتزامهم بالوزن والقافية والمعاني التقليدية. كانت تحاكي أساليب الشعراء الأمويين والعباسيين، وتُعلي من شأن البيان والبلاغة.

من أبرز أعلامها: محمود البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم

مدرسة الإحياء والبعث

امتداد للمدرسة الكلاسيكية، لكنها أكثر وعياً بقضايا الأمة، ومحاولة لإحياء الشعر العربي بعد ركود طويل.

حمل روادها همّ النهضة، وشدّوا على أيدي الأمة لتستفيق من سباتها.

السمات: الاهتمام باللغة العربية الفصحى، والتقاليد البلاغية، والموضوعات التاريخية.

من أبرز أعلامها: محمود البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم
ولعلك تجد تكرر هؤلاء العمالقة الثلاثة في كلا المدرستين وهذا طبيعي
فالثانية امتداد للأولى

والفرق في الزاوية التي يُتناولون بها:

في المدرسة الكلاسيكية: التركيز على التقليد والمحاكاة والالتزام بالعمود
الشعري.

في الإحياء والبعث: التركيز على الوظيفة النهضوية والتجديد في ظل القلب
القديم.

المدرسة الرومانسية

انطلقت من الذات، فكان الشعر فيها تعبيراً عن الوجدان، والحزن،
والانكسار، والتأمل في الطبيعة.

ظهرت بوصفها رد فعل على قيود الكلاسيكية، وسعت إلى تحطيم القوالب
الجامدة.

من أبرز أعلامها: إبراهيم ناجي، علي محمود طه.

مدرسة الديوان

أسسها العقاد، والمازني، وشكري.

تمردت على الشكل التقليدي، وركّزت على الصدق الشعوري والتجديد في
المضمون، وأثرت فيها الثقافة الغربية.

من أبرز أعلامها: عباس محمود العقاد، إبراهيم عبد القادر المازني، عبد
الرحمن شكري.

سماتها: نقد الشعر التقليدي، الدعوة إلى الفكر والفلسفة في الشعر، والبحث عن الذات.

مدرسة المهجر

أنشأها أدباء عرب هاجروا إلى الأمريكتين، فجمعوا بين حبهم لوطنهم، وتفاعلهم مع البيئة الجديدة.
امتازت بالصدق العاطفي.

من أبرز أعلامها: جبران خليل جبران، إيليا أبو ماضي، ميخائيل نعيمة.

مدرسة أبولو

أسسها أحمد زكي أبو شادي، وكان شعراؤها أكثر تحرراً من قيود الوزن والموضوع، وأقرب إلى الرومانسية، مع تأثرهم بالمدارس الأوروبية.
من أبرز أعلامها: أحمد زكي أبو شادي، إبراهيم ناجي، علي محمود طه.
سماتها: النزعة الذاتية، الحنين، الحزن، النزوع إلى الطبيعة، والتجديد الموسيقي.

مدرسة الشعر الحر (التفعيلة)

ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وكسر أصحابها عمود الشعر العربي، فاستخدموا التفعيلة بدلاً من البحر الكامل، وتحرروا من القافية.
من أبرز أعلامها: بدر شاكر السياب، نازك الملائكة، عبد الوهاب البياتي.
سماتها: التنوع الموسيقي، الحرية في التعبير، الانفتاح على قضايا العصر.

ليست المدارس الأدبية مجرد تصنيفات نقدية، بل هي مراحل في رحلة الأدب العربي الحديث، تُشبه مراحل النمو في حياة الإنسان. ولطالما وجدتُ في بعضها شيئاً من نفسي: مع نقدي لبعضها في ميولهم السياسي والحداثي . كنت دومًا أقف على أرض الوفاء لأصولنا، وأندهش ممن نزعوا انتماءهم، أو سبّوا أوطانهم، أو باعوا لغتهم باسم التجديد. فالأدب الحق هو ما جمع بين الأصالة والتجديد، بين العاطفة والعقل، وبين الوطنية والإنسانية

الشعر الجاهلي: صوت الصحراء الأول

في عمق الصحراء، حيث لا صوت إلا الريح، وُلد الشعر الجاهلي كصرخة وجود.

لم يكن الشعر آنذاك ترفاً لغوياً، بل كان سجلّ القبيلة، وفخر الفارس، ووسيلة الحضور في عالمٍ لا يعترف إلا بالقوة والصوت. حين قرأت المعلقات، شعرت أن اللغة كانت آنذاك أكثر حرارة، كأنها تخرج من جوف الرمل لا من أفواه الرجال.

لكنني حين وقفت عند زهير بن أبي سلمى، تبينت وجهًا آخر للشعر الجاهلي، وجهًا يعقل قبل أن يندفع، ويتأمل قبل أن يهدر. كان زهير كمن يزن الكلمة بميزان الحلم، فتجيء أبياته ناضجة بالتجربة، رصينة في الحكمة، كأنها كتبت في ضوء نجمٍ قديم. لم يكن شاعر حرب، وإن كتب عنها، ولم يكن متهاكًا على الوصف، وإن أتقنه.

كان في شعره وقارٌ لا يخلو من حرارة، ونُبْلٌ لا يخلو من مرارة، كأنها يقول: إن الصحراء تُنبِت الشوك، ولكنها لا تخلو من العقلاء.

قال في قصيدته، بصوت الحكيم الذي اختبر الحياة وراقب الناس:

وإنَّ الحقَّ مقطعه ثلاثٌ

يمينٌ أو نفاًزٌ أو جلاءٌ

وفي بيتٍ آخر، بمعلقته رسم زهير فلسفة الأخلاق كما يراها البدوي النبيل:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ

وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

زهير لم يكن شاعر فروسية فحسب، بل كان صوتاً للعقل في زمن الغريزة. وقد قيل: “كان زهير لا يمدح إلا من علم أنه أهل للمدح، ولا يقول بيتاً إلا بعد أن يُمضيه في نفسه عاماً” — وهكذا صار شعره كالسيف إذا أُشهر، لا يضرب إلا وهو على يقين شعور.

الشعر الأموي: منبر العروبة والفساحة

في العصر الأموي، نزل الشعر من خيمة القبيلة إلى قصر السلطة. صار الشاعر جزءاً من منظومة الدولة، أو مارقاً، أو مرهفناً يهرب بالكلمات من جدل العامة .

تألفت في ذهني أسماء مثل جرير، والفرزدق، والأخطل. كانوا فرساناً لا يحملون سيوفاً، بل أبياتاً مسنونة.

الشعر الأموي جعلني أرى أن الكلمة يمكن أن تكون تحية أو صفة، وأن الشاعر لا يملك فقط لغته، بل جمهوره وسلطته.

الأدب العباسي: فتنة العقل واللغة

كان العصر العباسي ذروة النضج.
لم تعد اللغة فقط وسيلة تعبير، بل أصبحت حقلاً لتجريب العقل والفلسفة.
دخلت الكتابة مرحلة التأمل، وتفرّعت الأجناس الأدبية، واختلط الشعر
بالعلم، والنثر بالدهشة.

قرأت لبشار بن برد، فشعرت أن الذكاء حين يسكن الشعر، يتحول البيت إلى
رمح من نار.

كان أعمى، لكنه يرى بمكر اللغة ما لا يراه المبصرون.

كان يعرف متى يستخدم الألفاظ والمعاني القوية ومتى يستبدلها بأخرى
بسيطة عفوية

في قصيدته لزوجته يقول في طرافة لا تخلو من غزل ساخر:

ربابة ربّة البيت

تصبُّ الخلّ في الزيت

لها عشرٌ دجاجاتٍ

وديكٌ حسنُ الصوت

وفي موقف آخر، كتب على لسان الخليفة أبيات مدوية وقال:

وإنّا لقوم ما تزال جياننا

تساور ملكاً أو تناهب مغننا

هكذا كان بشار، لسانًا من نارٍ في زمنٍ يعتز بالبيان، شاعرًا أظهر أن الدولة
العباسية لم تكن فقط دولة سيف، بل دولة عقل وشعر ومكر لغوي
وقرأت للجاحظ، فوجدت أن النثر صار حيًا يتنفس.
واستوقفتني أناقة أبي تمام، وغموض أبي العلاء، وبلاغة البحري.
إذا غامرت في شرفٍ مروم...”
هكذا صرخ المتنبي، ليس للناس، بل لنفسه.
كنت أظنه يتحدث عني أحيانًا، حين أتعب، وأحتاج أن أستعيد ثقتي بنفسي.
الأدب العباسي جعلني أؤمن أن الإبداع لا يولد في الراحة، بل في الحيرة،
وأن اللغة حين تُمسك بيد العقل، تصنع الحضارة

الأدب الأندلسي: أندلس الكلمة والحنين

في الأندلس، لم تكن اللغة مجرد وسيلة تعبير، بل كانت فناً معمارياً، تتقاطع فيه الأقواس مع العبارات، وتنساب فيه القوافي كما ينساب ماء النافورات في حدائق "قصر الحمراء".

هناك، في ذلك الفردوس المفقود، أصبح الشعر مرآة للجمال المرهف، وللحنين الصامت، وللحياة التي تمشي على رؤوس الأصابع. عندما قرأت لابن زيدون:

أحسست أن شعره ليس رسالة إلى ولادته فقط، بل هي رسالة فُقدت، كتبها شعب بأكمله قبل أن يضيع وطنه.

كان الأدب الأندلسي ترنيمه، لكنه ترنيمه حزينة دائماً، حتى وهو يمدح أو يصف الزهر.

فالأندلسيون عرفوا مبكراً أن الجمال هش، وأن الوداع قادم لا محالة، فصبغوا كلامهم بعطر مؤجل ودمعة متأخرة.

لقد تعلّمت من الأدب الأندلسي أن الشعر يستطيع أن يكون وطنًا، وأن القصيدة قادرة على أن تحفظ ما لا يحفظه السيف.

الدول المتتابة:

حين قاومت اللغة السقوط

بعد سقوط بغداد، ظنّ البعض أن الأدب العربي سيسقط معها. لكن اللغة أبت أن تموت، فتابعت رحلتها في زمن المماليك والعثمانيين، من القاهرة إلى دمشق، ومن إسطنبول إلى فاس. في تلك العصور، تغيّر وجه الشعر والنثر. لم تعد اللغة سيّدة القصور وحدها، بل نزلت إلى الأسواق، وعكست هموم الناس، وانشغالات العلماء، وفتاوى الفقهاء، وزخارف البلغاء. ظهر في تلك العصور أدب جديد يمزج بين الحكمة والحيلة. قرأت في “مقامات الحريري” ما يشبه المسرح المتنقل، وفي “نفع الطيب” للمقري ما يشبه الحنين المدفون تحت طبقات الغبار. رغم التراجع السياسي، كانت اللغة تحفر نفقها الخاص في الظلام، باحثاً عن النور، عن مكان تستعيد فيه كبرياءها. لقد تعلّمت من هذه المرحلة أن الأدب لا يعيش فقط في القمم، بل أحياناً ينمو بصمت في سفوح التاريخ، ليُفاجئنا من جديد

الأدب في العصر الحديث

في العصر الحديث، لم تتغير اللغة بقدر ما تغيرت النظرة إليها. فالقصيدة التي كانت تُبنى على عمود الخليل، صارت تُبنى على عمود الذات.

والنثر الذي كان مرآة للتراث، أصبح مرآة لوجدان الإنسان المعاصر. لم يعد الأدب حارسًا للتراث فقط، بل أصبح شاهدًا على الانكسارات الكبرى والأسئلة التي لا إجابات لها.

قرأتُ في شعر البارودي نهضةً، وفي شوقي روحًا ملكية تعانق البيان، وفي حافظ إبراهيم صرخة شعوب، وفي إيليا أبي ماضي روح التفاؤل، وفي الراجعي لغة براقعة، وفي طه حسين مشروعًا للعقل لا يمسّ جوهر البيان، بل يسائله ليزهر.

العصر الحديث لم يخرج من جلده العربي، بل وسّع جلده ليحتوي المعاصرة دون أن يتنكر للذات.

إنني أرى الأدب الحديث كميناء واسع ترسو فيه سفن متعددة: منها من جاء من مرافئ القديم، ومنها من يبحر بلا خريطة، لكن البحر واحد، والرياح التي تحرك الأشرعة لا تزال تهب من وجدان الإنسان.

أما الأدب السعودي، فهو شجرة نبتت في أرض صلبة، وواجهت رياح الصحراء قبل أن تستظل بها.

لم يكن هذا الأدب وليد قرارٍ جائرٍ أو هبةٍ مؤسسية، بل وُلد من التوق إلى التعبير، ومن الحنين إلى ما لا يُقال.

هو أدب يحفر في العمق، لا في السطح، ويستدعي المفردة من جذورها، لا من أوراقها المتساقطة.

لقد تكوّن على مهل، كزرعٍ في أرضٍ لم تتخلّ عن جذورها، ولا استعارت ضوءاً غريباً لتنمو.

العشاوي: صوت الضمير في زمن التحولات

يمثّل الدكتور عبد الرحمن العشاوي أحد الوجوه المضيئة في الشعر الإسلامي المحافظ، وقد كتب بأسلوب يجمع بين العاطفة النبيلة، والفكرة الواضحة، واللغة الجزلة.

لم يكن شعره هجاءً ولا تطرفاً، بل رُقيّاً أخلاقياً، ونقداً واعياً لواقع مضطرب، بلغة تنحاز للحق دون صخب، وللجمال دون فوضى. فلو قرأنا قصيدته:

تسير بها الأوائل والتوالي

وترفع بيننا أسمى مثال

والأخرى:

ياربُّ لولا لطفك المأمولُ
لتحيرتُ فيما نراه عقولُ

والثالثة:

دعيني أسرج الخيل العتاقاً
وأجعلها إلى هدفي انطلاقاً

وغيرهن الكثير الكثير من الدرر الفريدة، لوجدنا في تلك الكنوز ما يلامس
قلوبنا وعقولنا ويصنع الشغف في أخلاقياتنا عموماً
شعره يمثل نموذجاً متزناً للشاعر المعاصر، لا يخلو شعره من التزام، لكنه لا
يغلق أبواب الجمال.

ولغته ليست دعوية مباشرة، بل خطاب يحمل بعداً إنسانياً ودينياً راقياً”
عبد الرحمن العشماوي أعاد الاعتبار للشعر من جهة القيم، وأثبت أن
الالتزام لا يعني الجمود، بل هو انحياز للإنسان من الداخل”
في زمنٍ تتنازع فيه التيارات الأدبية بين التغريب والتقليد، كان شعر
العشماوي أشبه ب”ميزان من نور”، يكتب للإنسان المؤمن لا المغيب، ويرى
الشعر باباً إلى الإصلاح لا إلى الفوضى

عبد الكريم الجهيمان

هو أحد أبرز وجوه الأدب السعودي في القرن العشرين، تميّز بالاعتدال
الفكري، والارتباط بالبيئة المحلية، والكتابة بلغة قريبة من الناس، بعيدة عن
التكلف أو التغريب، مع دفاعه عن العقل والوعي دون المساس بالثوابت.

كتب في الصحافة والقصة القصيرة والأمثال الشعبية، وله فضل كبير في حفظ التراث الشفهي النجدي، لكنه أيضًا لم يكتفِ بالجمع، بل كان يُعلّق ويحلّل ويربط بين الحكايات والواقع الاجتماعي والديني.

وحين قرأت لعبد الكريم الجهيمان، شعرت أن القلم يمكن أن يكون عينًا ترى الناس لا من فوق، بل من بين صفوفهم. كان معتدلاً في فكره، وفي أدبه، وفي خطابه. لا يهوى التصادم، ولا يحب الانغلاق.

يكتب وكأنه يربّت على كتف القارئ، لا ليعلمه، بل ليذكّره بما كان يعرفه ونسيه.

جمع الأمثال، ودوّن الحكايات، وكتب القصة القصيرة، لكنه في كل ذلك لم يكن مؤرخًا، بل كان أديبًا يرى في حكايات البسطاء حكمةً تستحق أن تُروى.

يقول في تقديمه لكتاب “أساطير شعبية من قلب الجزيرة العربية”:
ليست هذه الحكايات للضحك فقط، بل هي مرآة تعكس ذهنية المجتمع، وهي شظايا من حكمة الناس حين لم تكن لديهم مدارس أو جرائد.”
كان الجهيمان يكتب من داخل المروءة، ومن قلب الصدق، وعمق الإيمان الصامت.

فما بين القصة القصيرة والأمثال الشعبية والكتابة الصحفية، ظلّ صوته ثابتًا: أن العقل لا يعارض الدين، وأن الأدب ليس صراخًا، بل ضمير يلتقط ما يضيع من فم الأجيال

عبد الله بن إدريس

أحد الأصوات التي حافظت على مكانة الأدب، دون أن تفقده البوصلة. في شعره تجد الوجدان الإسلامي حاضرًا دون تكلف، واللغة فصيحة دون جفاف، والنقد هادئًا دون قسوة.

وقد سعى من خلال كتبه ومقالاته إلى إبراز جماليات الأدب المرتبط بالقيم، لا ذاك المنفصل عنها بدعوى الحداثة.

كتب يقول:

ليس في الإسلام ما يعيق الإبداع، ولكن في الذوق ما يضبط الانفلات”
كان عبد الله بن إدريس يرى أن الأديب المسلم ليس خطيب منبر، لكنه أيضًا ليس مهرّج مسرح.

هو ضمير ناطق، وجمال منضبط، وذائقة لا تنفصل عن العقيدة.

وهكذا، حين تنظر في أعمال عبد الرحمن العشماوي، وعبد الكريم الجهمان، وعبد الله بن إدريس، تدرك أن الأدب السعودي لم يكن في لحظاته المشرقة تابعًا ولا مقلدًا، بل كان صوتًا نابعًا من الأرض، ممتلئًا بالحكمة، دافعًا بالإيمان، عارفًا بمكانه وزمانه

وفي الرواية السعودية، مثلًا، تجد سردًا يحمل حرارة الرمل، وتيه البداوة، وحوار المدن الجديدة مع ظلالها القديمة.

إنه أدب لا يُجب الصراخ، بل يفضل النبرة الخافتة، لأنه يعرف أن أكثر الأصوات تأثيرًا ليست تلك التي تُسمع، بل التي تُشعر.

الأدب السعودي هو ابن بيئته، لكنه لم يُقيّد نفسه بحدود الجغرافيا، بل جعل من الصحراء فضاء تأمل، ومن النخلة رمزاً للصعود رغم الجفاف. لا يخضع لمزاج العولمة، ولا يُستدرج إلى استقطابات فكرية عابرة. إنه أدب يبحث عن الإنسان أولاً، وعن معنى أن تكون عربياً بلا ضجيج، ومسلماً بلا صراع، ومبدعاً بلا انكسار

قصائد صنعت فارقاً في حياتي

في مسيرة كل عاشق للأدب، تأتي لحظات يتوقف فيها الزمن على بيت شعري، أو تتغير وجهة القلب بكلمة قالها شاعرٌ منذ قرون.
لا لأن البيت جديد، ولا لأن القول غريب، بل لأنه لامس فيك شيئاً كنت تجهله عن نفسك.

هناك قصائد لا تمرّ عليك... بل تمرّ بك.

تعيد ترتيب ذاكرتك، وتوقظ فيك بصيرةً كانت نائمة، وتغرس مبدأً يبقى حياً فيك ما حييت.

في هذا الفصل، أتحدث عن بعض القصائد التي صنعت في حياتي الأدبية والفكرية فارقاً، وتركت بصمتها في تكويني، وما زلت أرددتها كلما احتجت إلى ضوءٍ داخلي.

قصيدة العباس بن مرداس رضي الله عنه:

ترى الرجل النحيف فتزدرية...

صدى القصيدة في وجداني:

وقفتُ طويلاً عند هذا البيت منذ أول مرة سمعته فيها، كنت في مقبل وعيي، أقرأ الشعر لا لأتذوقه فقط، بل لأفهم الناس والحياة من خلاله.
لفتني هذا الصوت الذي يعيد تعريف الهيبة، لا بالهيئة، بل بالمواقف.

ترى الرَّجَلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ

وفي أثوابه أسدٌ مُزِير

هذه القصيدة نبّهتني إلى أن الإنسان لا يُقاس بالظاهر، وأن من الخطأ أن نربط الهيبة بالشكل، أو نزن الرجال بالهيئة، لأن العظمة تكمن في المواقف لا في الأحجام.

ولعل البيت التالي يزيد المعنى حدة:

ويعجبك الطيرُ فبتليه

ويخلفُ ظنكَ الرجلُ الطير

هذه الأبيات علمتني أن أكون أكثر إنصافاً في النظرة، وأن أتحرى الجوهر قبل الحكم. ومن حينها صارت هذه القصيدة جزءاً من “ميزان التقدير” الذي أحمله معي.

قصيدة معروف الرصافي:

هي الأخلاق تنبت كالنبات...

كيف أثرت في رؤيتي للتربية والمجتمع:

هذه القصيدة من النصوص التي لا تقرأها بعين المثقف فقط، بل بعين المرابي، والإنسان، والمواطن.

كل بيت فيها يضع لبنةً في بناء إنساني متكامل.

قرأتها أول مرة في كتاب دراسي، لكنها لم تبقَ بين دفتيه، بل خرجت معي إلى الحياة.

هيَ الأخلاقُ تَنبُتُ كالنباتِ

إذا سُقيتِ بهاءِ المَكْرُماتِ

هذا التصوير البديع للأخلاق كنبات، غيّر عندي طريقة النظر للسلوك البشري.

فكما لا نلوم النبتة إن لم تُسَقَّ، فكذلك لا نلوم الطفل أو الشاب إن لم نغذّه بالقيم.

الأخلاق لا تأتي فجأة، بل هي نتيجة تربية وسقاية مستمرة.

ثم تأتي هذه الأبيات التي جعلتها دائماً في مقدمة أي حديث تربوي:

تقوم إذا تعهدّها المُرَبِّي

على ساق الفضيلة مثمراتِ

وتسمو للمكارم باتساق

كما اتّسقت أنابيب القناة

الرصافي هنا لا يكتب شعراً فقط، بل يُلقِي درساً عميقاً في صناعة الإنسان، وهذا ما جعل هذه القصيدة نقطة تحوّل في فهمي للعلاقة بين الأدب والتربية.

قصيدة طرفة بن العبد:

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلًا...

ما الذي تعلّمته من هذا النص الأخلاقي العميق:

في هذه القصيدة، يقدّم طرفة بن العبد ما يشبه “دليل السلوك النبيل”، ويعلمنا كيف يكون الإنسان أميناً للثقة، صادقاً في حمل الرسالة، حازماً عند العطاء.

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلاً

فأرسلَ حكيماً ولا توصِ

في هذا البيت اختُزلت حكمة عظيمة: أن الرجل الحكيم لا يحتاج إلى وصية، فهو يعرف كيف يدبّر الأمور.

ثم يوصيك بالحزم:

وإن بابَ أمرٍ عليك التوى

فشاوِرْ لبيباً ولا تعصِ

كل بيت في هذه القصيدة بمثابة درس في المعاملة، ومرآة لمن أراد أن يزن سلوكه.

وقد صارت هذه القصيدة بالنسبة لي مرجعاً كلما احتجت إلى مراجعة موقفِي من الثقة، أو من إرسال الرسائل، أو من اتخاذ القرارات.

قصيدة بشامة بن حزن النهشلي:

فخر السيوف والكلمات:

من بين أصوات الشعراء الذين جمعوا بين فروسية الأفعال وجزالة الألفاظ وجمال المعاني، يبرز اسم بُشامة بن حزن النهشلي، شاعرٌ قاتل بلسانه كما قاتل بسيفه، وكتب بقلب يفيض بعزّة لا تخلو من رقة.

في مطلع قصيدته الأشهر:

إنا محيولُك يا سلمى فحيينا

وهو بيت يتأرجح بين الغزل والعتب، بين شوقه واعتداده الكريم بنفسه.

لكن سرعان ما يتحول الخطاب العاطفي إلى صوت عربي، رجولي، فخم،
يطرق أبواب الفخر، لا بالأنساب وحدها، بل بالفعل والسلوك.

في واحد من أعظم أبياته، يقول:

إِنَّا لَنرْخُصُّ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا

ولو نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا”

هنا يُعلِّمنا النهشلي أن الكرم الحقيقي ليس طعاماً يُقدِّم، بل دمٌ يُراق دون
تردد، وأن النفس التي تُرخص في لحظة الخطر، تصبح أعلى من كل شيء في
لحظة السلم.

ما أعمق هذا التوازن!

فالبيت يشير إلى أن النفس العزيزة لا تُقدَّر بثمن حين يسود السلام، لكن
الفخر كل الفخر فيمن يُلقي بها في النار إذا احتدم الروع.
ويبلغ ذروة العزة حين يقول:

إِنِّي لَمَنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَاتِلَهُمْ

قَوْلُ الْكِمَاةِ، أَلَا أَيْنَ الْمَحَامُونَا؟”

هنا لا يكتفي بالحديث عن نفسه، بل يستدعي سلسلة نسب الفروسية
والفداء، ويُشير إلى أن عشيرته قد خاضت المعارك حتى فني أوائلها من كثرة
ما تصدَّروا الموت،

ثم يتحدث: أين أنتم؟ أين من يحمونكم كما حمينا؟

في هذه القصيدة، يظهر مفهوم الفخر لا بوصفه تفاخراً قليلاً، بل كروية أخلاقية للحياة: أن تكون شجاعاً، كريماً، حاضرًا في الملهمات، لا تهرب من الواجب، ولا تبيع المروءة في سوق الراحة.

بُشامة يُمثل ذلك الطراز الذي لم يكتب الشعر للمديح أو الرثاء فقط، بل ليعلم القيم، ويغرس معنى الرجولة والسؤدد.

وفي قصيدته تلك، لا نراه مغرورًا بل واثقًا، لا متعاليًا بل صادقًا، لأنه يؤمن أن القيمة تُصنع بالمعاناة، لا بالزهو.

فإن قيل: ما الذي يجعل بيتًا من الشعر يبقى؟

نجيب: حين يُترجم لحظة صدق بشري، وموقفًا أخلاقيًا، كما فعل بُشامة

قصيدة زهير بن أبي سلمى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم...

هناك لحظات لا يكتب فيها الشاعر شعرًا، بل يكتب فيها الزمن نفسه. وهذا ما فعله زهير في معلقته الشهيرة، التي تبدأ باستفهامٍ وقور، ليس فيه خفة العاشق، ولا لهفة المتيم، بل فيه وقار الشيخ الذي يرى الحب كما يرى الحرب: من مسافة فكرية.

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالمتكلم؟

منذ البيت الأول، نفهم أن زهير ليس هنا ليكي الأطلال، بل ليحاورها.

لا يعاتب الدار فقط، بل يستنطقها، يسألها عن المعنى بعد الفقد، عن صدى
من رحلوا، عن أثر الشوق حين يصبح أثرًا.

زهير لا يصدر عن قلب مراهق، بل عن روح تأملت كثيرًا، وخبرت كثيرًا،
وخرجت من لهيب الحياة دون أن تحترق، بل وهي تُضيء.

ثم تأتي القصيدة لا لتستعرض مأساة حرب، بل لتحاكمها.
فهو لا يمدح الحرب، ولا يتعنى بها، بل يقف أمامها كما يقف الفيلسوف
أمام العبث: يتأمل، يشرح، ويحذر.

وزهير، في كل بيت، لا يصوغ الشعر فحسب، بل يبني ميزانًا أخلاقيًا
للأشياء.

يرى أن المجد لا يكون في القتال، بل في إنهاء القتال، وأن الصلح ليس
ضعفًا، بل رجولة عليا:

تداركتما عبسًا وذيابًا بعدما

تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

تلك هي أعظم لحظة في القصيدة، بل ربما من أبلغ ما قيل عن الصلح في
الشعر العربي كله.

إنه يمتدح من أنهوا الخصومة، لا من خاضوها. ويمجد العقل، لا السيف.
زهير في هذه القصيدة يعلمنا أن الشعر ليس صورة ولا قافية فقط، بل فكرٌ
يمشي على سطورٍ موزونة، ووجدانٌ يتعالى عن الزيف، عن الانفعال المؤقت،
ليقف شامخًا في وجه الغوغاء.

وهو، وإن وصف الأيام، والهجر، والأنواء، فقد ظلّ طوال القصيدة يُرسل رسائل غير مباشرة إلى قارئه:

- لا تُخدع بالبريق، فإن الدماء لا تُتجدد، بل تُخزن.
 - لا تكن عبداً للغضب، فإن من يطفئ نار الحرب أعظم ممن يشعلها.
 - وفوق ذلك كله: تأمل، ثم احكم. واكتب إذا كنت قد جرّبت.
- زهير هو الشاعر الذي جعل الحكمة ليست ضدّاً للشعر، بل روحاً له. قصيدته هذه لم تغيّر حياة، بل غيرت من معنى الشعر نفسه في عصره

أي هذا الشاكي وما بك داء” – إيليا أبو ماضي

في هذه القصيدة، يعرض إيليا أبو ماضي رؤية فلسفية ناعمة لكنها جذرية؛ إنه لا يلوم الزمان، بل ينظر في مرآة الإنسان.

يخاطب كل قلب أثقلته الشكوى، وكل روح أرهقتها الضيق، فيدعوه لأن يكون جميلاً من الداخل، لأن يرى الجمال أولاً في ذاته.

أي هذا الشاكي وما بك داء*

كن جميلاً ترّ الوجودَ جميلاً”

ليست هذه دعوة ساذجة للتغافل عن المصائب، بل هي احتجاج هادئ على نظرنا المحدودة للعالم.

التفاؤل هنا ليس زينة أدبية، بل ثورة داخلية على الكآبة، وانحياز عاقل لجانب النور في الحياة.

في هذه القصيدة اكتشفت أن جمال العالم يبدأ من زاوية النظر، وأن الإنسان لا يهزم من الخارج بقدر ما يُثقل من داخله.

إنها قصيدة تزرع في النفس بذورًا من الرضا، وتدعوها لأن تسقيها بالحمد.

يعيرني بالدين قومي” – المقنع الكندي

هذه القصيدة فخر كريم، واعتراف شجاع بأن في الدين ما قد يرفع الرأس، لا يخبئه.

لقد تكلم المقنع الكندي لا بلسان مفلس، بل بروح عرفت أن المجد الحقيقي لا يُشترى، بل يُغرس، ولو بهال معوز، إذا كان في ذلك حفظٌ للوجه والكرامة.

يعيرني بالدين قومي وإنّما

ديوني في أشياء تُكسبهم حمداً”

هنا يصبح الإنفاق دينًا كريمًا، لا تهمة، ويغدو المال وسيلة لحماية ماء الوجه لا لشراء المجد الزائف.

كم في هذه القصيدة من معانٍ تشبه الخلق العربي في أرقى صورته: الجود، الغيرة على الحمى، ونبل التضحية لأجل الجماعة.

لقد زرعت في نفسي احترامًا خاصًا لأولئك الذين يبذلون من غير أن ينتظروا اعترافًا، ويخسرون ليحفظوا كرامة غيرهم.

وإن كانت نظراته تختلف في زمننا ولست مؤيدًا لها بهذا الزمن وإنما هي خاصة بزمانهم

إن الذي سمك السماء” – الفرزدق

من علو السماء، استمد الفرزدق رمزية مجده.

فهو لا يفاخر بهال ولا بعدد، بل بأسسٍ ضربت جذورها في التاريخ، وعلت إلى أن لامست السماء مجازًا.

إن الذي سمك السماء بنى لنا

بيتًا دعائمه أعزّ وأطول”

إنه بيت العز الذي لا تُشيدُه أيدي، بل تشيده الأخلاق، والسلالة، والمواقف. والقصيدة وإن كانت في ظاهرها فخرًا قبليًا، إلا أنها في حقيقتها تذكير بأن القيمة تُبنى من الأساس، لا من الزخارف.

هذه الأبيات أيقظت في نفسي فهماً أعمق للمجد؛ أنه ليس ما يُرى، بل ما يُبنى في الخفاء.

وأن البيت – أي الهوية – لا يُقاس باتساعه، بل بثباته في وجه العواصف.

قصيدة اللغة: صرخة حافظ في وجه العُقم الحضاري

ما أكثر القصائد التي طافت على أذنيّ دون أن تترك أثرًا، وما أقل تلك التي التفتُ إليها، فإذا بها تلتفت إليّ، وتضع يدها على كتفي قائلة: “أنا ما كُتبتُ عبثًا، أنا جئتُك في لحظة انكسار... لأقيمك”.

هكذا فعلت بي قصيدة حافظ إبراهيم حين قرأتها أول مرة، لا كشاعرٍ ولا كأديب، بل كعربي يشعر بالغرابة في لسانه، ويكاد يستحي من لغةٍ هي بعض دينه وميراثه.

تلك الأبيات لم تكن شكوى شاعرٍ بل كانت شهادة حضارةٍ تحتضر على مرأى ومسمع من أبنائها.

قال حافظ، وكأنه يصرخ بي:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَأَتَهَمْتُ حَصَاتِي
وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَأِحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَكَيْتَنِي
عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي

لم تكن اللغة عنده أداة تعبيرٍ فقط، بل كانت كياناً حياً، له شرايينٌ وفؤادٌ ومجدُّ أصيل.

وما أتقل أن يُرمى هذا الكيان بالعقم من قبل من وُلدوا في حضنه! وكأن الشاعر لا ينفعل فقط لأجل اللغة، بل يغضب لأجلنا، ونحن لا نغضب. هذه القصيدة علمتني أن من يدافع عن اللغة لا يدافع عن مفردات، بل عن رؤية، عن أخلاق، عن ذاكرتنا الجمعية ووشائج قلوبنا.

ومنذ أن وقعت تلك الأبيات في نفسي، لم أعد أنظر للغة على أنها وسيلة، بل على أنها هويةٌ تُستعاد أو تضيع
يا عامراً لخراب الدار” – البُستي

بذكاء شعري وحكمة تأملية، يصوغ البُستي بيتاً موجعاً، كأنه سؤال أخلاقي موجّه إلى كل من يهدم ما يتظاهر ببنائه.

يا عامراً لخراب الدار مجتهداً *

بالله هل لخراب الدار عمرانٌ؟”

ينقض بهذا البيت ما يُبنى على زيف النوايا، ويعري التناقض الذي يقع فيه من يُحسن الظن بنفسه، وهو يهدم ما لا يراه.

وفي بيت آخر يقول:

ويا حريصًا على الأموال تجمعها *

أقصر، فإن سرور المال أحزان

فهو يصف حال الإنسان الذي يسعى بجشعٍ ولهفةٍ إلى جمع المال، وكأن في المال حياةً فوق الحياة، وسعادةً لا يُنال مثلها.

يخاطبه الشاعر بنداءٍ فيه شيء من التوبيخ الممزوج بالشفقة: “ويا حريصًا”، فالحرص هنا ليس مجرد طلبٍ للرزق، بل هو لهفة مشوبة بالخوف من الفقر، وتعلقٍ بالدنيا حدَّ الغفلة عن المصير.

ثم يأتي الأمر بالتهذبة: “أقصر”، أي توقف، أو خفف من لهائك وراء المال، فهو نداء المحبِّ العاقل الذي يرى في الإفراط انتحارًا بطيئًا للروح. لماذا؟ يجيبك بقوله: “فإن سرور المال أحزان”.

كم هو بليغ هذا التعبير! كأن المال، وإن أدخل على القلب سرورًا، فهو سرورٌ مؤقَّت، يعقبه الحزن؛ إما حزن الفقد، أو حزن القلق عليه، أو حزن الحساب يوم العرض الأكبر.

فسرور المال سراب، يبهجُ ظاهر النفس، لكنه يترك في العمق شجنًا لا يزول. (فليس في الدنيا سرورٌ يُشبه لذة الآخرة، كما أنه ليس فيها بلاءٌ يُشبه عذاب النار، ولكنَّ الناس عقلوا ظاهرًا من الحياة الدنيا)

فاللذات يبهجُ ظاهر الحياة، لكنه يحمل في طياته تعب السعي، وخوف الضياع، وحساب الآخرة.

فالبيت دعوة للزهد المعتدل، لا للتحرُّج من الرزق، بل للعدل في طلبه، ووزن حقيقته في ميزان العقل والدين.

فالبیت لیس ذمّاً للمال، بل ذمّاً للحرص، وما یجره من غفلة، إذ المال وسیلة لا غاية، فإذا صار غايةً أورد النفس موارد الحزن بعد زیف السرور
أثرت فی هذه القصیة لأنها لا تکتفی بالنقد، بل تدعو للتأمل.
إنها لا تصرخ، بل تسأل، وتساؤلها وحده یربک النفس التي تتواطأ مع الوهم

وأختم هذا الفصل بقصیدتین جمیلتین جدا:

قصیة الحمی -

ملومکمما یجلّ عن الملام - أبو الطیب المتنبی

فی قصیة الحمی هذه، لا نقرأ وجع جسد فحسب، بل نشهد عاصفة من صراع الذات بین الكبیراء والضعف، بین عنفوان الشاعر وتفتت الإنسان.
القصیة تبدأ بمواجهة مزدوجة: بینة و بین الأثر، و بینة و بین من یلومانه علی حزنه، فیقول:

ملومکمما یجلّ عن الملام

أي: الذي تهمّان بلومه (وهو المتنبي نفسه) أرفع قدرًا، وأوسع شأنًا، وأبعد أثرًا من أن یلام!

كأنما یقول: لو عقلتما ما وراء ظاهري، لما خطر فی بالكما عتابٌ ولا اعتراض.
فالملامة لا تكون إلا لمن كان فی مستوی يمكن محاسبته بمقاييس العامة، أما من جاوزهم فهم "فوق اللوم" لا تكبرًا، بل لأنهم يتحركون فی أفقٍ آخر، حيث تكون دوافعهم ومقاصدهم أعمق من أن تُدرك بكلام الناس.
(فالعقلاء يتصرفون بما یملیه علیهم الفكر، لا بما یرضی الآخريين)

ووقعُ فعاله فوق الكلام”
أي: أفعالي أعظم وقعاً من أن تُحكى أو تُفسَّر بالكلام.
وهذا شموخٌ فلسفي، كأن المتنبّي يردّ:
ما يفعله غيري يُروى بالكلمات، أما ما أفعله أنا، فيفوق حدود اللغة
والتوصيف.

وهذا يذكرنا بمقولة لنيتشه:

الكلمات أفنعة للحقيقة، والأفعال وحدها تزيح تلك الأقنعة.”
المتنبّي هنا لا يتكلم فقط عن شخصه، بل يقدم رؤية كاملة للذات العظيمة:
من كانت أفعاله عظيمة بحق، لا يحتاج إلى أن يبررها، ولا يمكن تقويمه
بالمقاييس الشائعة.

لأنه يحيا بفكرٍ خاص، وغاية تتجاوز اللحظة، فلا يفهم ولا يُلام.
والبيت يُشبهه من حيث الروح قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:
الناس أعداء ما جهلوا.”

فما داموا يجهلون علوّ فعلي، فلا لوم يُلتفت إليه، ولا اعتراض يُلتفت نحوه.
فالبيت صوتُ الإنسان الذي يسير ضد التيار، ويعلم يقيناً أن القيمة الحقّة
ليست في رضا الناس، بل في سموّ المقصد، وصفاء الفعل.

فمن كان فعله “فوق الكلام”، فليس عليه أن يشرح أو يبرر، بل عليه أن
يسير في قصيدته كأنها الأمل هنا لا يُشكى، بل يُعتزّ به، يُكابره عليه، ويُجمل في
حضرة الشعر.

يتعالى المتنبي عن الضعف، ولكنه لا يُنكره؛ يجعل من الحمى ضيفاً له مهابة، فيقول عنها إنها رؤية جمالية للألم، لا تُرى عند غيره، فحتى الحمى تتحوّل في معجمه إلى “جمال يُصوّر”! إنها لحظة تفوق شعريّ على واقع جسدي، يختلط فيها الفن بالفناء، والشعر بالحمى، والحياة بالشكوى الفخورة

قصيدة أبي اسحق الإلبيري

تَفُتُّ فُوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا” – أبو إسحاق الإلبيري

أما هذه القصيدة، فهي مرآة الحكمة، وصرخة الزمن في وجه الغافلين. يبدأها الإلبيري بنداء حادّ إلى القلب، كما لو كان يوقظه من سبات طويل:

تَفُتُّ فُوَادَكَ الْأَيَّامُ فَتًّا

وَتَنَحْتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا

فالزمن ليس عنده مجرد مرور، بل فعل مستمرّ من التآكل والنحت، وكأنّ الإنسان تمثال يُنحت كل لحظة حتى لا يبقى منه شيء إلا أثره

تنامُ الدهرَ ويحك في غطيظٍ

بها، حتى إذا متّ انتبهت

يخاطب الألبيري الإنسان الغافل عن مآله، اللاهث في الدنيا غارقاً في غفلة العيش وزخرف الحياة، فيقول له:

تنام الدهر، أي تمضي عمرك كله كأنك نائم،

في غطيظ، والغطيظ هو صوت النوم العميق، كناية عن شدة الغفلة وطمأنينة العيش التي لا تليق بعارفٍ بالحقيقة.

ثم تأتي الصدمة:

حتى إذا متَّ، انتبهتَّ!”

يا للمفارقة! لم تستفق من غفلتك في حياتك، بل كان الموت هو المنبّه الأول والأخير.

كأن الموت هو أول وعيٍ حقيقي يطرق باب الإنسان، فيرى حينها كم كان نائمًا، ساهيًا، مسرفًا على نفسه.

في هذا البيت حسرة نبيلة، وخوف كريم.

إنه يشبه الصرخة التي أطلقها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال:

الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.”

وقد تشارك في هذا المعنى الجميل مع قول التهامي

العيشُ نومٌ، والمنيةُ يقظةٌ

والمرءُ بينهما خيالٌ ساري

فهذا البيت قطعة من الجمال الحزين، كتبها التهامي بعد موت ابنه، فخرجت مشحونة بنار الفقد، ومنزلة الحكمة.

يقول: العيش نوم، لا حقيقة له، لا ثبات فيه، كأنه حلم طويل.

ثم يقول: والمنية يقظة، أي أن الموت، على قسوته، هو الحقيقة الوحيدة الثابتة، التي تصحو فيها الروح على ما كانت عنه غافلة.

أما الإنسان، فهو “خيال ساري”، أي ظلٌّ عابر، شبح يمشي بين الحلم واليقظة، بين وهم الحياة وصرخة الموت.

هذه الصورة التي رسمها التهامي من أبداع ما قيل، وفيها تشابه جميل مع بيت

الإلبيري

إلا أن الإلبيري يرسم صورة الإنسان الغافل، كأنه يعاتبه: أما آن لك أن

تصحو؟

أما التهامي، فيرسم صورة الإنسان الفاني، كأنه يواسيه: لا عليك، فكلنا نمّر

كظلال، والموت وحده هو الحقيقة.

فالبیت الأول دعوة إلى الانتباه قبل فوات الأوان،

والثاني نظرة حزينة تقول: ما من مهرب، فالكل حلم، واليقظة موت

ثم يقول:

سُجِنْتَ بها وأنت لها محبٌّ

فكيف تُحِبُّ ما فيه سُجِنْتَ؟

فالمعنى الظاهري

يقول: لقد سُجِنْتَ بها، أي بالدنيا، وقيدتك شهواتها، وأوهامها، ومظاهرها

الخادعة، ومع ذلك، فأنت لها محب، متعلق القلب، مشغوف الجوارح.

ثم يعجب قائلاً:

كيف تُحِبُّ ما فيه سُجِنْتَ؟

كيف تعلق قلبك بسجنك؟

كيف ترى السلاسل ذهباً، والجدران جنّة، والضيق فسحةً؟

والمعنى الأدبي العميق في هذا البيت انقلابٌ في المنطق، وسخرية راقية من

الحال البشري:

فالإنسان، رغم أنه مقيد بالدنيا، مغلول بشهواتها، مثقل بالهموم والآلام، إلا أنه يتعلق بها، ويحبها، بل ويتفاخر بذلك الحب!

هي الدنيا التي قهرتك، وأوهنتك، وسجنتك بين خوفٍ وطمع، بين ولادةٍ وفناء، فكيف يكون قلبك لها أسيرًا، وهي التي لم تحفظ لك عهدًا ولا وفاء؟ فالبيت يرسم تناقض الإنسان مع نفسه:

يطلب الراحة من سلبه الراحة، ويؤمل الخلود من ختمت عليه بالفناء.

وقد أشار ابن الجوزي إلى هذا المعنى حين قال:

يا هذا! ما لك والدنيا؟! خلقت للأخرة، وسُجنت في الدنيا، وأنت تحب سجنك؟! ”

هذا البيت يرتكز على سؤال أنطولوجي (وجودي):

لماذا نحب من قيّدنا؟

ولم نؤنس ما لا أنس فيه؟

فالناس أسرى الظلال، ولو رأوا النور لاستنكروه.”

فهم أحبّوا سجنهم لأنهم لم يعرفوا غيره، فصار لهم وطنًا وهم لا يشعرون.

وكذلك قال ابن القيم في الفوائد:

من أحب شيئًا غير الله عُدّب به.”

بيت الإلبيري دعوة رقيقة وقاسية في آن:

أفّق من وهمك! لا تحب سجنك، بل تجرّد منه، فالمحبوس لا يعشق القضبان.

إنه نداء حرية، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

إذن قصيدة الإلبيري كل بيت فيها يحمل قلقًا وجوديًا، وتنبهًا روحيًا.

فالقصيدة ليست مجرد وعظ، بل بناءً روحيّ متكامل، يربّي النفس على وعي
الزمن، ومسؤولية المصير.
هاتان القصيدتان ليستا لحظتين في الشعر فقط، بل لحظتان في التكوين
الشخصي لي.
الأولى أيقظت فيّ إحساس الكبرياء النبيل، والثانية أيقظت فيّ رهبة المصير
وجديّة الرحلة.
وكأنهما صوتان متقابلان:
أحدهما يصرخ من حرارة الجسد، والآخر يهمس من أعماق الروح

والدي... شيخُ اللغويين ومهندسُ الروح

الحضور الذي لا يُشبهه سواه:
ليس كل من أنجبك هو بالضرورة من أعاد تشكيلك.
أما أنا، فكان والدي عبدالله تركي البكر هو من صنع في داخلي نواة اللغة،
وشرارة الشغف، وبوصلة التوجّه.
لم يكن مجرد أب، بل كان كائنًا لغويًا يمشي على الأرض.
رجلٌ تنبعث من صوته قواعد النحو، وتنبض في صمته بلاغةُ العرب.
في البيت، لم تكن اللغة مادة تدرّس، بل كانت هواءً نعيش به، وأفقًا نُطلُّ منه
على الدنيا.
كان الحرف له حرارة، وكان الضمير له ضمير.

النحو... كما لم يُدرّس من قبل

كان النحو عنده شيئًا آخر غير الذي عرفناه في المدارس.
لم يكن مجرد رفعٍ ونصب، بل كان فهمًا عميقًا للحياة من خلال بنية الجملة.
كان يقول لي: “الجملة العربية لا تكون فاعلة حتى تعرف فاعلها، وكذلك
الإنسان.”
وقد أعرب القرآن الكريم كاملاً، لا ليظهر علمه، بل ليُزيل الغشاوة عن
العيون التي لم تر في النص إلا واجبًا مدرسيًا، بينما رآه هو نهرًا من المعنى.
تتبع كل آية وكأنه يتبع دربًا إلى الله عبر الكلمة.

البلاغة... حين تتنفس الكلمات

ولم يكن يفصل النحو عن البلاغة، فكل جملة عنده كانت تتنفس، وكل حرف يتألق في مكانه.

قراءته للنص كانت أشبه ما تكون بجراحة دقيقة، يُظهر فيها النسيج الداخلي للمعنى، ويكشف عن جماله الكامن.

كان يردد: “إذا لم تدهشك الاستعارة، فربما ما قرأتها بقلبك.”

إطالة على المجتمع...”

حين يكتب المثقف من بين الناس

لم يحرص نفسه في المعاجم والمصادر، بل انفتح على قضايا مجتمعه، فكتب كتاباً بعنوان “إطالة على المجتمع”، تحدث فيه بلغة الأديب، ووعي العالم، وإحساس المواطن.

تناول فيه ظواهر حياتية وأخلاقية بلغة مضمّخة بالتراث، لكنها تخاطب الواقع بعين ناقدة رحيمة.

في المحافل... لسان حائل ووجدانها

كان المتحدث باسم أهالي حائل في زيارات الملوك: الملك فيصل، والملك خالد، والملك فهد - رحمهم الله جميعاً.

لم يكن اختياره صدفة، بل لأن لسانه لم يكن مجرد متحدث رسمي، بل مرآة صادقة لأهله وبلده.

كان إذا وقف أمام الملك، وقف معه التاريخ، ووقفت خلفه بلاغة حائل
بأكملها.

الكتاب... الرحلة والهدية

أذكر جيداً كيف كان يسافر بحثاً عن الكتب، كما يسافر الشاعر بحثاً عن
القصيدة.

كان يعود من أسفاره وفي حقيبته كتاب نادر، أو طبعة قديمة، أو عنوان
مغمور، وكأن الكتب كانت تناديه من بين الرفوف.

وكانت لمستته التربوية حاضرة دومًا، إذ كان يضع مصر وفنا داخل الكتب.
كنا نبحث عن النقود، لكنه كان يزرع فينا شيئاً أبقى: اسم المؤلف، عنوان
الكتاب، ورائحة الورق.

بهذه الطريقة الذكية، ربطنا بين الرغبة والمعرفة، فصرنا لا ننسى الكتاب لأن
فيه هدية، ولا ننسى الهدية لأنها جاءت عبر الكتاب.

أثره في مسيرتي...

الكلمة التي صارت حياة

لم يكن فقط من علمني اللغة، بل من منحني حق حبها.

شجّعني لفظياً ومعنوياً، صراحةً وتلميحاً، حتى غرست العربية جذورها في
قلبي.

واليوم، بفضل الله ثم بفضل، أحمل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، وأقف حيث كان يقف، أقدم المحاضرات، وأشرف على الندوات، وأقيم ورش العمل والدورات التدريبية.

أشعر أن كل حرف أنطقه فيه شيء من صوته، وكل جملة أكتبها، ظلّه فيها. لم أكن فقط تلميذًا في بيته، بل كنت مشروعًا لغويًا أسسه بالعناية، وغذاه بالصبر.

الأب الذي علّمني كيف أكون

ليس هذا فصلًا عن السيرة، بل هو فصل من الذاكرة. ذاكرةٌ ما زالت تنبض بحضوره الحيّ، الدافئ، العميق. حفظك الله يا أبي، يا من جعلت اللغة وطنًا لي، والعربية قلبًا نابضًا في صدري.

وإن كان لك من فضل عليّ، فهو أنك لم تعلمني كيف أتحدث، بل كيف أكون

كتب شكّلتنى وبنّت الكثير من جوانبي الأدبية

أعزُّ مكانٍ في الدنا سرجٍ سابحٍ

وخيرٌ جليسٍ في الزمان كتابٌ

بين السرج والكتاب - تأمل في بيت المتنبي

هذا البيت ليس مجرد سطر شعري، بل معادلة وجودية بين الحركة والتأمل، بين الفروسية والفكر.

المتنبي لم يكن فارسًا في ساحة المعركة فقط، بل كان فارسًا في ساحة المعنى.

وبيته هذا يمثّل قمة التوازن بين الجسد الذي يقتحم، والعقل الذي يتأمل.

"سرج سابح" هو استعارة عن الانطلاق، عن النزعة الفطرية في الإنسان إلى المغامرة، إلى الذهاب حيث لا تُرسم الخرائط،

أما "خير جليس في الزمان كتاب"

فهي نغمة الروح حين تأنس بفكرة، وتتشبّث بحرف، وتجد في الصمت المصحوب بالحبر ما لا تجده في ضجيج الأسواق.

وقد أدركت، مع السنين، أنني لا أستغني عن السرج ولا عن الكتاب، وإن اختلفت السروج وتغيّرت الكتب.

فقد يكون السرج اليوم فكرة جامحة، أو رحلة معرفية، أو موقفًا شجاعًا في ظرفٍ رمادي.

وقد يكون الكتاب نصًّا جديدًا، أو عودة إلى الجاحظ، أو همسًا قديمًا من صوت الرافعي.

هكذا تتوازن الحياة في داخلي: بين سرج يشدني إلى الحراك، وكتابٍ يربطني بالثبات.

فالحرية لا تكتمل إلا حين تكون مصحوبة بالفهم، والفهم لا ينضج إلا حين يمرّ من بوابة الأدب.

فالمثنبي إذ يقول هذا البيت، لا يدعو إلى العزلة ولا إلى المغامرة المجردة، بل يرسم ملامح الإنسان الكامل: ذاك الذي يمتطي سهوة الفعل، ويحمل في قلبه مكتبة من الحكمة

ليست الكتب كلها سواء، وإن كانت تُجمع في مكتبة واحدة. فبعضها يعبر بك، وبعضها تعبره.

وهناك كتب، حين تقرأها، لا تنتهي منها... بل تبدأ بها.

تدخلها وأنت شخص، وتخرج منها وأنت شخص آخر.

في هذا الفصل، لن أكتب عن الكتب التي قرأتها، بل عن الكتب التي قرأتني.

تلك التي طبقت شيئًا في داخلي، فهزّته، أو شحذته، أو أضاءته.

بعض هذه الكتب جاءني به أبي، وبعضها طلبته أنا، وبعضها جئت إليه وأنا

لا أعرف لماذا، فإذا به يعلمني من أنا.

كان الكتاب ولا يزال نافذتي الأولى على العالم، لا العالم الواقعي فحسب بل

العالم الداخلي الذي لا يُرى، حيث تنمو اللغة وتشكل الروح.

وإذا كانت الكتب الأولى قد أُرست في داخلي البنية الأدبية، فإن ثمة كتباً لاحقة ما زالت تتردد أصداءها في وجداني، لا بوصفها أوراقاً، بل بوصفها كائنات حية أعادت ترتيب العالم بداخلي

1/ الكامل في اللغة والأدب” للمبرّد

هذا الكتاب لم يكن مجرد مصدر لغوي، بل كان عالماً من الطرافة والنقد والبلاغة، وأشبه ما يكون بمتحف للذوق العربي. كنت أقرأه لا لأجمع المعلومات، بل لأصاحب اللغة. لقد علّمني هذا الكتاب كيف يتجاوز البيان والسخرية، وكيف يكون الأدب تذوقاً، لا تصنيفاً. وفيه تعلّمت أن من البيان ما هو حياةٌ للمعنى، لا مجرد قالب له.

2/ طبقات فحول الشعراء” لابن سلام الجمحي

كنت كلما قرأت فيه، أشعر كأنني أقابل أولئك الشعراء وجهًا لوجه، أسمع حواراتهم، وألمس اختلاف طبائعهم. هذا الكتاب درّبني على الفهم النسبي للجودة، فلا شعر جيد بإطلاق، ولا رديء بإجماع، بل هناك قرينة، وسياق، وذوق. لقد غرس فيّ هذا الكتاب احترام التراكم الأدبي، ووعى التنوع في الأصوات الشعرية.

3/ النظرات ” للمنفلوطي

المنفلوطي كان أبوةً أدبيةً لي، قبل أن أكتب. لم أكن أقرأه لأجل الفكرة، بل لأجل التهذيب الداخلي الذي تصنعه لغته. كنت أحس أن كل جملة منه تمرّ على قلبي قبل أن تمرّ على عقلي. منه تعلمت أن البلاغة ليست صخبًا، بل صدق. وأن الأدب ليس فخامة تعبير، بل رهافة حسّ. قراءتي له كانت درسًا في أدب النفس قبل أن تكون في أدب اللغة.

4/ كتاب “إطالة على المجتمع” – لأبي

كتاب والدي، الذي ألفه بلغة الأديب، ونفس المثقف، وسعة المربي، لم يكن كتابًا في الموضوع فحسب، بل كان درسًا في أن المثقف الأصيل لا يعيش في برج عاجي. بل يكتب للناس، ومع الناس، ومن الناس. حين قرأته، شعرت أنني أقرأ رؤية إنسانية من رجلٍ يعيش مجتمعه، ويعرف مفرداته، ويؤمن بقيمه. ولعلي لم أكن أعلم، أن هذا الكتاب كان من اللبّات الأولى في بناء اهتمامي بالأدب الاجتماعي.

5/ أدب الكاتب – ابن قتيبة الدينوري

هو كتاب ليس في “الأدب” وحده، بل في تقويم الذوق، وتطهير اللغة من عوالم اللحن والتكلف.

قرأته أول مرة كطالب علم يبحث عن سلامة العبارة، ثم عدت إليه لاحقاً بوصفه مفتاحاً لأدب اللغة لا لغة الأدب.

كان ابن قتيبة يسلمني، وأنا أتصفح، إلى قواعد كانت تختبئ خلف ركافة المبتدئين، فإذا بها تنجلي كما تنجلي الحقيقة من وراء قناع.

علمني “أدب الكاتب” أن الأديب لا يُقاس بطول سطور، بل بسلامة منطقته وصدق بيانه.

6/ البيان والتبيين – الجاحظ

أما الجاحظ، فليس مؤلفاً بل عالم من الفكر، و”البيان والتبيين” ليس كتاباً بل معرض دهشة.

كل فقرة فيه تمثل التقاء العبقرية بالجنون الجميل.

كنت كلما أعدت قراءته، شعرت أن الجاحظ لا يريد أن يفهم تماماً، بل أن يُتذوق على مهل.

هذا الكتاب علمني أن البيان ليس زخرفة، بل رؤية.

وأن التبيين لا يكون بكثرة اللفظ، بل بإضاءة المعنى.

7/ النوادر – أبو علي القالي البغدادي

هذا كتاب يأخذك إلى مجالس العرب كما لو كنت تجلس بينهم، تستمع لحكاياتهم، وتشتمم عقب لغتهم الخام. “النوادر” ليست طرائف للضحك، بل مرايا تُرى فيها أخلاق العرب، ومقاييسهم في الفصاحة، وموازينهم في الفهم. في هذا الكتاب، وقفتُ على دقائق لغوية قلّ أن تجد لها شروحات في كتب النحو، ووجدتُ أن اللغة حين تُروى في قالب النوادر، تكون أكثر حياة وأشدّ تأثيرًا.

8/ وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي

هذا الكتاب ليس مجموعة مقالات، بل كتاب الروح العربية حين تكتب بلغة النقاء. قرأت الرافعي فشعرت أنني أتنفّس من رئة الأدب الخالص، وأن البيان الذي يصدر عن الألم أصدق من ألف قصيدة. وحي القلم طوّر إحساسي بالعبارة، علّمني أن أكتب لأقول لا لأملأ، أن أعبر لا لأستعرض، أن أكون حاضرًا بين الكلمات لا متخفيًا خلفها. مع الرافعي، اكتشفت أن اللغة عندما يُمسك بها قلبٌ صادق، تتحول إلى مصباح ينير الطريق لا إلى زخرفات باردة. في كل كتاب ذكرته هنا، لم أكن مجرد قارئ، بل كنت شريكًا في التجربة.

وبعضها، كان يضعني في امتحان خفيّ، لأرى: هل أنا أهلٌ لما أقرأ؟ وهل
بقي فيّ مما قرأت؟
وما زلت أؤمن أن بعض الكتب، حين تنتهي من قراءتها، يبدأ في داخلك
فصلٌ جديد

بساتين الشافعي – مختارات شعرية ورؤى فنية

في أدب الشافعي تجدد النفس متكئة على الفصاحة، والروح معلقة بأوتار الحكمة.

لا يكتب شعراً يُعجب، بل ليُرَبِّي ويُهذِّب، فهو فيلسوف السطور الموجزة، وزعيم المعاني التي لا تموت.

هذا الفصل ليس عرضاً لأبياته، بل مصاحبة وجدانية وفنية لها، كما يرافق الابن أباه في الطريق، لا لينظر إلى وجهه فقط، بل ليتأمل أثر خطاه.

1/ دع الأيام تفعل ما تشاء:

دع الأيام تفعل ما تشاء

وطب نفساً إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي

فما لحادث الدنيا بقاء

يبدأ الشافعي بالاستسلام الحكيم، لا استسلام الضعيف، بل ثقة العارف بأن مجرى الأقدار أكبر من مقاومة الفرد.

النعمة في الأبيات هادئة، مستسلمة.

فيها توازن بين الإيوان بالقدر، والسكينة النفسية التي ترافق الرضا.

الوزن الخفيف يُشبه حركة النسيم، والتكرار في القافية يعطي طابعاً من الطمأنينة.

2/ إذا المرء لا يردك إلا تكلفاً:

إذا المرء لا يردك إلا تكلفاً

فدعه ولا تكثر عليه التأسفاً

ففي الناس أبدال، وفي الترك راحة

وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا

هنا الشافعي يُعلمك النصح العاطفي في بيتين.

لا بكاء على علاقة مزيفة، ولا تمسك بمن يتجمل لك بلا ود.

الموسيقى الشعرية تشبه طريقة النصح الهادئ، والنبرة مليئة بكرامة لا تتكبر،
ووداعة لا تستضعف.

هذا الشعر ليس تأملاً فقط، بل تربية للنفس على التحرر.

3/ أتهزأ بالدعاء وتزديه؟

أتهزأ بالدعاء وتزديه

وما تدري بما صنع الدعاء؟

سهام الليل لا تُخطي ولكن

لها أمدٌ وللأمد انقضاء

تبدو هذه الأبيات كأنها صوتٌ من الداخل يوقظ النفس من غفلتها.

الدعاء ليس كلاماً فارغاً، بل له أثر يتجاوز حدود المنطق.

الصورة الفنية في “سهام الليل” فيها عمق رمزي: الليل سكونه أقرب

للصدق، والسهم لا يرى حين ينطلق لكنه يُصيب.

وفي كلمة “انقضاء” نغمة رجاء وصبر، فيها وعد مؤجل لكنه أكيد.

4 / صديقٌ ليس ينفَعُ يومَ بؤسٍ:

صديقٌ ليس ينفَعُ يومَ بؤسٍ

قريبٌ من عدوِّ في القياسِ

وما يبقى الصديقُ بكلِّ عصرٍ

ولا الإخوانُ إلا للتآسي

هنا نبرة الشافعي تميل إلى الشجن الواقعي.

هو لا يكتب عن صداقة مثالية، بل يُقرر حقيقة الحياة: بعض الأصدقاء مثل الظلال، لا يظهرون إلا في الشمس. في الوزن نغمة رتيبة تعكس الثبات، وكأنها تصف قانونًا اجتماعيًا لا استثناء فيه.

5 / إذا نطقَ السفيةُ فلا تُجبه:

إذا نطقَ السفيةُ فلا تُجبهُ

فخيرٌ من إجابته السكوتُ

فإن كلمته فرّجت عنه

وإن خليته كمدًا يموتُ

هذا البيت صار مثلاً متداولاً.

وهو ذكاء في الصياغة النفسية قبل أن يكون شعراً.

الفكرة قائمة على ترك الخصم يحترق بكلامه، لا بمن يرد عليه.

الإيقاع سريع كالنصيحة، والمفارقة في “يموت كمدًا” تنقل صورة مؤثرة

6/ ولرب نازلةً يضيق بها الفتى :

ولرب نازلةً يضيق بها الفتى

ذرعاً، وعند الله منها المخرجُ

ضاقَت فلما استحكمت حلقاتها

فُرِجَت، وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

لو كانت هذه الأبيات تُقرأ عند المِحن، لكانت مرهماً لقلوب كثيرة.

فيها صورة بصرية - "حلقات تستحکم" - وكأن الشدة تحاصر الإنسان كقيود لا فكاك منها.

ثم تنفِرج. لا بمجهود خارق، بل برحمة خفية.

الإيقاع محبوك، والتدرج من الضيق إلى الفرج يشبه تصاعداً سينمائياً لا يفقد وقاره.

7/ الناس بالناسِ ما دامَ الحياءُ بهمُ :

الناسُ بالناسِ ما دامَ الحياءُ بهمُ

والسعدُ لا شكَّ تاراتٌ وهَبَّاتٌ

وأفضلُ الناسِ ما بينَ الورى رجلٌ

تُقضى على يدهِ للناسِ حاجاتٌ

هذه الأبيات من مدارس الأخلاق الكبرى.

فيها فلسفة اجتماعية عميقة: أن الحياء هو رابط الإنسان بالإنسان.

فإذا زال، تفتت كلُّ صلة.

ثم ينتقل إلى صورة الوسيط الإنساني، ذاك الذي يُقضى على يديه الحاجات،
كأنه باب رحمة بين السماء والأرض.

8/ أمت مطامعي فأرحتُ نفسي:

أمتُ مطامعي فأرحتُ نفسي

فإن النفسَ ما طمعتُ تهونُ

وأحييتُ القنوعَ وكان ميتاً

ففي إحياءِه عرضُ مصونُ

هنا فلسفة الزهد كما يجب أن تُقال. الشافعي لا يعظ الناس أن يزهّدوا خوفاً،
بل يقدّم القناعة كحياة جديدة.

البيت الأول فيه مفارقة مدهشة: “أمتٌ” و”أرحتُ”، وكأن الراحة لا تأتي
إلا بعد موت شهوةٍ ما.

إنه يُحيي القيم المهجورة بكلماتٍ تحيي القارئ.

9/ ومن لم يذقِ مرّ التعلمِ ساعةً:

ومن لم يذقِ مرّ التعلمِ ساعةً

تجرّعَ ذلَّ الجهلِ طولَ حياته

ومن فاته التعليمُ وقتَ شبابه

فكبرَ عليه أربعاً لوفاته

لو أردت أن تختصر موقف الإسلام من الجهل، لقرأت هذه الأبيات.

فيها قسوة الشافعي التي تشبه قسوة الطبيب حين يقول الحقيقة.

الجهل في رأيه موت مؤجل.

الصورة في “كبر عليه أربعاً” ليست فقط مذهلة أدبياً، بل ترن كناقوس خطر في مسامع المتكاسلين عن العلم.

10/ توكلتُ في رزقي على الله خالقي:

توكلتُ في رزقي على الله خالقي

وأيقنتُ أن الله لا شك رازقي

وما يكون من رزقي فليس يفوتني

ولو كان في قاع البحار العوامق

هذا من أصفى الشعر الإيماني في ديوان الشافعي.

القصيدة فيها عتاب للقلق، وتمجيد للعزة الإلهية، وتحرير للإنسان من استعباد الأسباب.

كلمة “العوامق” هنا لم تأت فقط للوزن، بل لتأكيد أن ما كتبه الله لن يُحجَب. في هذه المختارات، لم أكن أنظر إلى الشافعي كشاعر فحسب، بل كرفيق فكري وشاهد وجداني.

كان صوته يأتيني في زحام الحياة فيوقظني، ويأتيني في الصمت فيطبطب عليّ.

وها أنا - بفضل الله، ثم بدعمه غير المباشر - أقدم دوراتي، ومحاضراتي، وكتبي، وأنا أحمل شيئاً من ذلك الأدب الرفيع الذي نشأت عليه كلمات الشافعي

أبو العتاهية - شاعر الحكمة والزهد

في حياة كل أديب لحظة صمتٍ يوقظه منها بيتٌ من الشعر.
وهكذا كان لقائي الأول بأبي العتاهية. لم أكن أبحث عنه، بل هو من جاءني،
يمشي على وقع حكيمته، ويطلق باب قلبي بشطرٍ من بيت:
لعمرك ما الدنيا بدار بقاء
توقفتُ أمام هذه القناعة الصادقة، وهذا الصراع بين العقل والهوى،
فاكتشفت أنني أمام شاعرٍ لا يتجمل، بل يعرّي الدنيا من زيفها.
أبو العتاهية - وكم أحب هذا الاسم الغريب! - لم يكن شاعرًا عابريًا، بل
أحد أولئك الذين تردوا على موازين الشعر، وكسّروا أوزان اللهو، ليضعوا
بدلاً منها نغمةً من اليقظة.
شاعر الحياة الواقعية:
نُسب إلى "العتاهية" لمبالغته في التزهّد، أو لانصرافه عن الزخرف في القول.
لم يكن ترف القصور مأواه، بل وجد نفسه في مهنٍ بسيطة، كبائع جرار، قبل
أن يستقرّ به المقام شاعرًا في بلاط الخليفة المهدي والهادي والرشيد.
لكنه لم يرض أن يكون لسان طرب فحسب، فتمرّد على اتجاهات اللهو
والمجون، ولبس عباءة الحكمة، وراح يوقظ النائمين بأبيات تشبه الوخز.
كان أبو العتاهية يرى الإنسان، ليس ملكًا متوجًا، بل غرضًا في ميدان الفناء.
وفي ذلك عمقٌ فلسفي هائل: الإنسان ليس مركز الكون، بل عابِرٌ في طريق
مزدحم بالمصائر.

إن شعر الزهد عند أبي العتاهية ليس دعوة إلى مذهب هدام، بل هو حكمة
تنبع من عينٍ رأت كثيراً، وقلبٍ فقد كثيراً.
مناجاة صادقة لا تصنع فيها:

إلهي لا تُعذِّبني فإنِّي

مُقرٌّ بالذي قد كان مني”

وما لي حيلةٌ إلا رجائي

وعفوك إن عفوتَ وحسنُ ظني

كم في هذه المناجاة من صدقٍ إنساني! لا يدعي طهارةً ولا يتستّر على الخطايا.
فهو المتعب من الحياة، المنكسر أمام ربّه، القائل بكلّ تواضع: “إنِّي ضعيفٌ..
فارفق بي.”

أبو العتاهية هنا لا يكتب شعراً فحسب بل يقرب لك المسافات مع باب
التوبة.

طَلَبْتُكَ يَا دُنْيَا فَأَعَذَرْتُ فِي الطَّلَبِ

فَمَا نِلْتُ إِلَّا الْهَمَّ وَالْغَمَّ وَالنَّصَبِ

افتتح أبو العتاهية القصيدة ببناء مباشر إلى “الدنيا”، وكأنها كيان حيّ،
يخاطبها كمن يعتب على عشيقه غادرة أو صديق مخادع.

الفعل “طلبتك” يوحي بالرغبة والركض خلفها، مقروناً بـ “فأعذرت في
الطلب”، أي بذلت الجهد كاملاً حتى لم تبق لنفسه عذراً في تقصير أو فتور.
لكن ما كانت ثمرة هذا الطلب؟

خيبةً ثلاثية الطعن: همًّا، غمًّا، ونصبًا.

التدرج هنا بليغ؛ فالهم هو أول ما يطرق النفس، ثم الغم حين يشتد، ثم
النصب – أي التعب البدني والنفسي – وهو الذروة.
الجناس بين “طلب” و”نصب” يجعل للبيت جرًّا موسيقيًا مؤلِّمًا، ويؤكد
دائرية المعاناة.

كما أن استخدام حرف العطف “الفاء” يدل على نتيجة حتمية لفعلٍ عظيم،
لكن النتيجة مفعجة.

البيت يلخّص مأساة الوجود المادي: الإنسان يركض ظانًّا أن السعادة في
التملك، فإذا به لا يجني سوى الفقد والقلق والتعب.

إنها خديعة الحواس، وغرور الرغبات.

وفي البيت الثاني:

فَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنِّي لَسْتُ وَاصِلًا

إِلَى لَذَّةٍ إِلَّا بِأُضْعَافِهَا تَعَبٌ

هنا لحظة انكشاف: لحظة فلسفية يتجلّى فيها الوعي.

الشاعر يعترف أنه حين نظر في حاله وتجاربه، أدرك أن كل لذة ينالها لا تأتيه
إلا بعد تعب يضاعفها مرات، كمن يدفع دينًا باهظًا لفرحة قصيرة.

فالبيت قائم على مفارقة: اللذة التي هي هدف الإنسان، لا تُنال إلا بما
يُنْقِصُهَا مِنْ تَعَبٍ.

والنتيجة؟ التوازن مختل.

في البيت مقابلة بين “لذة” و”تعب”، وهما نقيضان يتضادان ليشكلا مفارقة توصل المعنى الفلسفي.

كما أن تركيب “إلا بأضعافها تعب” فيه التباس يباني يزيد من شعور القارئ بالثقل والتكلفة النفسية التي تُدفع لاقتناء اللذائذ.

هنا يتجلى مبدأ فلسفي وجودي: أن في سعي الإنسان وراء اللذة تكمن مأساته.

وأن اللذة نفسها، حين تُنال بعد شقاء، لا تُعطي ما يُتَظَر منها، بل ربما تفقد معناها.

وفي البيت الثالث:

وَأَسْرَعْتُ فِي دِينِي وَلَمْ أَقْضِ بُعْيِي

هَرَبْتُ بِدِينِي مِنْكَ إِنْ نَفَعَ الْهَرَبَ

البيت يحمل نزعة تراجيدية: الشاعر يقرر الفرار، لا بجسده، بل ب”دينه” – أي بمعتقده وقيمه.

وقد أسرع بذلك حين علم أن لا جدوى من السعي، وأن الدنيا لا تمنح ما تُوهم به.

لكنه مع ذلك يقول: “إن نفع الهرب” – تعبير يدل على شك، أو ربما على إدراك أن حتى الهروب قد لا يكون خلاصاً نهائياً.

وكأنه يقول: “هربت بديني منك، لكن أخشى أنك ستلحقين بي ولو في خلوتي!”

في قوله “أسرعت في ديني” تعبير مجازي عن الإقبال على الطاعة والورع، وكأن الدين مأخوذٌ فيه بسرعة كمن يفرّ إلى ملاذ.

واستخدام “هربت” هنا يضفي طابعاً درامياً قوياً.

كذلك، في “إن نفع الهرب” وقفة فلسفية، تتخلل اليقين بالشك، وهذا مظهر من مظاهر الصدق النفسي في شعر أبي العتاهية.

البيت يحوي التأمل الوجودي العميق: هل الفرار من الدنيا إلى الدين ينجي فعلاً؟ وهل يمكن للإنسان أن ينجو من الدنيا ما دامت تسكن قلبه؟ إن الشك الذي ختم به البيت ليس شكاً في الدين، بل في قدرة الإنسان على التخلص من عبودية الدنيا وهو لا يزال فيها.

هذه الأبيات الثلاثة هي خلاصة تجربة إنسانية وفكرية عميقة، صاغها أبو العتاهية لا كواعظ مجرد، بل كمن جرّب الحياة حتى استنزفها، ثم أدار ظهره لها في حسرة.

الشعر هنا ليس مجرد أدب، بل حكمة ممزوجة بالألم، وتأمل محفوف بالتساؤل، ونزعة زهد لا تخلو من كِفاح باطني.

إنها مرآة عاكسة لواقع النفس البشرية: تطلب، تركض، تتعب، ثم تعود خاويةً إلا من جرح التجربة

لماذا أحببته؟

لأنه لم يكن مزيفاً، لم يزعم الكمال، ولم يكن سجّاناً للناس في قوالب المواعظ.
شعره نقي، متوتر، مفعم بالمعنى، وكأنه يكتبه والدمع في عينه.
علّمني أن الحياة ليست مسرحاً للبطولات، بل ممراً للمتأملين.
وعلّمني أن الشعر لا يكون مؤثراً إلا إذا خرج من القلب لا من القاموس

المتنبي – شاعر المجد والزوابع الوجدانية

في كل بيت من شعر المتنبي نبض روح معلقة بين السماء والطين،
وفي كل قصيدة سؤال لا جواب له: من أنا؟ لماذا أنا هكذا؟ ولماذا لا أكون
أعظم؟

هو ليس شاعرًا فحسب، بل فيلسوف سيفه الحرف، وميدانه الورق،
ومجده... هو ذاته.

منذ قرأت له أول مرة، شعرت أن صوته لا يشبه غيره، وكأن اللغة بين يديه
كانت تتنفس، وتتكبر، وتحاف، وتشتعل.

بين المجد والخلود: المتنبي كما يرى نفسه
لم يكن المتنبي يبحث عن لقمة العيش، بل عن مكان في قلوب العظماء وفي
صفحات التاريخ:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ

فلا تقنع بما دون النجوم

إنه لا يقنع، ولا يرضى بالقليل.

هذه الشهوة للمجد لم تكن ترفًا، بل كانت وجودًا، يبرر به نفسه، وينجو من
هشاشته.

وقد قالها صراحة:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلامي من به صمم

هذه ليست مفاجرة، بل هي نوع من “الوجود عبر الإبداع”، كأن الشعر بالنسبة له هو الطريقة الوحيدة ليقول: أنا كنت هنا.
حين تصير الإرادة فلسفة:

في تراث الشعر العربي، قلّ من نafs المتنبي في عمق الحكمة، وبلاغة التحدي، وخلود الكلمة التي تتجاوز الشعر إلى رؤية.
وفي ذاكرة كل من عاش مع الأدب، لا بدّ أن يمرّ عليه هذان البيتان:
وإذا لم يكن من الموت بدُّ

فمن العجز أن تموت جباناً”

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التمام”

هاتان الحكمتان، في ظاهر الأمر متباعدتان: الأولى عن الموت والجبن، والثانية عن الكسل ونقص الإنجاز.

غير أن من يتأمل عمق الفكرة يدرك أن المتنبي لا يعظ لحظات، بل يؤسس لميزان جديد في النظر إلى الإنسان: ميزان الكرامة الداخلية، لا النتيجة الخارجية.

يقول المتنبي: “وإذا لم يكن من الموت بدُّ، فمن العجز أن تموت جباناً”، أي إن كان لا بدّ من الموت، فهو قادم لا محالة، فلا شجاعة في تأخيره ولا بطولة في تجنّبه.

لكنّ ما يعيبه هو أن يأتي الموت على إنسانٍ قد تهيبّ، وتراجع، وحنى رأسه.

الجبن هنا ليس خوفاً من القتل، بل هو انكسار داخلي، استسلام قبل أن تقع المعركة.

في هذه الرؤية، لا قيمة لحياة تخلو من المواجهة، ولا نجاة في موتٍ يجيء والمرء قد خان شجاعته.

ثم ينقلنا المتنبي إلى عيبٍ أشدّ وقعاً، وإن بدا أكثر خفاءً:
ولرأر في عيوب الناس عيباً،

كنقص القادرين على التمام.”

إن العجز لا يُستنكر على العاجز، بل على من يملك القدرة، ثم يفرط فيها. ذلك أن التمام — الكمال الممكن — حقٌّ للقدرة، ومن تنكّر له، فقد انقلب على نفسه.

المتنبي هنا لا يذم النقص، بل يذم التهاون.

لا يعيب العاجز، بل يعيب القادر الذي اكتفى بأنصاف الحلول.

فكما الجبن خيانة للشجاعة، كذلك التراخي خيانة للموهبة.

نظرة المتنبي تنطلق من فلسفة واحدة: ألا تخون ما أنت عليه.

فإن كنت شجاعاً، فلا تمت جباًناً.

وإن كنت قادراً، فلا تعيش ناقصاً.

ليس المعيار عنده هو النصر أو النهاية، بل الوفاء لما فيك من قوة.

كأن المتنبي يقول:

“ليس العار أن تُغلب، بل أن تُغلب وقد وهبك الله أسباب الانتصار.”

“ليس العيب أن تموت، بل أن تموت ولم تفعل شيئاً.”

“ليس المهونة أن تُعجزك الظروف، بل أن تُعجزك نفسك.”

ففي البيت الأول ينتصر للكرامة في وجه الفناء، وفي الثاني ينتصر للإرادة في وجه التراخي.

وبينهما تنسج فلسفة المتنبي الكبرى: أن تكون كما أنت، لا كما يُراد لك أن تكون

اللغة بين يدي المتنبي: سيادة لا استجداء

اللغة عند المتنبي لم تكن وسيلة، بل كانت موضوعاً بحد ذاتها.

هو لا يطلب من الكلمات أن تخدمه، بل يأمرها، ويعيد ترتيبها لتتسق مع جموحه.

حين تقرأ له، لا تشك أنه سيّد اللغة، لا تابع لها.

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

هنا لا يصف نفسه، بل يصوغها صياغةً جديدة: إنسان تتقاطع فيه الفروسية والفكر، والمداد والدم.

لماذا أحبته؟

لأنني وجدته يشبه الحراك الذي في داخلي، يشبه تطلعي إلى المعنى، وصمودي أمام المباديء.

في كل بيتٍ له، وجدتُ صراعَ الإنسان مع أبناء جيله، مع نفسه، ومع الحياة
كثيرًا.

علّمني أن الشعر ليس تغزلاً وتهويماً، بل يمكن أن يكون بوحاً مرعباً، أو
اعترافاً أخيراً، أو صرخةً ضد العالم

مصطفى صادق الرافعي

نفسُ البيان وأريجُ العزّة

في زمنٍ ضجّ بالتغريب، وتموّهت فيه الهويّات، بزغ صوت الرافعي كصرخةٍ
في وجه السقوط، لا يُجيد الحياء، ولا يُتقن المجاملة.
إنه صاحب البيان الملتهب، الكاتب الذي ما كتب إلا وفي نفسه قضية، وما
رفع قلمه إلا وفي قلبه لوعة أو شوق أو كرامة تُستردّ.
عرفته أول ما عرفته من سطورٍ تهزّ المشاعر، وتستفزّ العقل، وتدفعك دفعًا
لتعيد قراءتها لا لأنك لم تفهمها، بل لأنك شعرت أنّ فيها شيئًا منك، ضاع
منك يومًا، وها هو يعود إليك بصوتٍ أبهى منك.

عن الرافعي الإنسان

ولد مصطفى صادق الرافعي في بيتٍ علميٍّ أصيل، وكان أبوه قاضيًا شرعيًا، فجاء الرافعي مؤصلاً في فهم العربية، عاشقًا للغة كما تُعشق الحياة. أصيب في شبابه بالصمم، فانفصل عن ضجيج الحياة، ولكنه اتّصل بعمقها، فصارت عزلته صوتًا أعلى من ضجيج الجماهير. لم يكن تابعًا لمدرسة أدبية، بل كان مدرسة وحده، يخوض معاركه في اللغة والهوية والذوق، ويكتب وكأن الكتابة قتال.

جزالة الرافعي:

فخامة البيان وسحر العبارة

لا يقرأ المرء الرافعي فيمر عليه، بل يقرأه ليغوص فيه، فهو يكتب بأسلوب صادق بليغ .

حين يقول مثلاً:

إذا لم تزد شيئاً على الدنيا كنت أنت زائداً عليها.”

فهو لا يعظ، بل يحدّد معايير الوجود.

كان أسلوبه جزلاً، مؤسساً، لا يأنف من السجع حين يكون طليقاً، ولا يهاب الخيال إذا ما هدّبه العقل.

تراه يمشي بين الجمال والمعنى كمن يُتقن الرقص بين الأشواك.

الرافعي والدفاع عن اللغة والهوية

وقف الرافعي سدًا أمام حملات التغريب، وكتب ردودًا عظيمة على دعاة العامية، وكان يرى اللغة العربية تاجًا على الرأس لا يليق أن يُرمى، ولا يُمتهن.

وقد كان يرى أن ضياع اللغة هو أول علامات فقدان الأمة لذاتها.

كان يقول: إننا أمةٌ شاعرةٌ، فكيف يُراد لنا أن نعيش بلا لغة شعر؟! ”

هو بذلك يحمل الهم ويصدق بالحق ويمزج بين جزالة الألفاظ وجمال المعاني أشهر كتبه التي أثرت في:

- وحي القلم: درر نثرية تفيض بالعاطفة، والكرامة، والدفاع عن الحق، والوطن، والمرأة، واللغة.
- رسائل الأحزان: تأملات نفس مشحونة بالعفة والعزلة والصدق، أبدع فيها تصوير المشاعر ببلاغة ساحرة.
- السحاب الأحمر: كتاب في المشاعر الراقية، والروح الشفافة، والغيرة النبيلة.
- حديث القمر: فلسفة شاعرية، وتأملات وجدانية لا يستطيع حبكتها إلا أديب مبدع.
- تحت راية القرآن: من أعظم ما كتب دفاعًا عن الإسلام والعربية والبيان. لماذا أحببته؟

أحببتُ الرافيقي لأنه لا يكتب لتسلية القارئ، بل ليشعل فيه ناراً، أو يضعه في امتحان مع نفسه.

لأنه لا يُهادن، ولا يُراوغ، بل يكتب كما يقاتل الفارس؛ بقلبه وسيفه معاً. أحببته لأنه كان يحب لغته كما يحب الطفل أمّه، لا يراها مجرد وسيلة، بل هوية وانتهاً وقدر.

الرافيقي لم يكن مجرد كاتب، بل كان صوتاً يمشي على قدمين، ونداءً خالداً لا تخطئه الأذن العربيّة الأصيلة

الجاحظ - عقلٌ عربي يكتب بالحبر والفلسفة

حين تفتح كتب الجاحظ، لا تشعر أنك أمام مؤلفٍ عادي، بل كأنك جالسٌ إلى رجلٍ ذكيٍّ حاضر البديهة، يسرد لك حكاية، ثم يضحك، ثم يغمض عينيه، ويقول لك جملةً فلسفيةً تظلُّ في رأسك أيامًا.

لم يكن الجاحظ مجرد كاتبٍ موسوعي، بل كان عقلاً يتحرك بحرية، وروحًا ترفض التقليد، ولسانًا لا يتردد في أن يقول رأيه ولو أغضب الجميع.

كان صديقَ العقل، وعدوَّ الجمود، ومحبًّا للتفاصيل الدقيقة، سواء في السلوك البشري أو في تصرفات البُزاة والأسود.

النبوغ من البصرة إلى التاريخ

ولد الجاحظ في البصرة

وتفتّح ذهنه في أروقة المساجد، وعلمته الحياة أكثر مما علمه الأساتذة.

لم يكن ثريًا، ولم يكن صاحب نسب مرموق، لكنه امتلك ما هو أندر: عقلٌ لا يتوقف عن السؤال.

قرأ للمتكلمين، وكتب في الفلسفة والحيوان والأخلاق والمجتمع، كأنه كان يتنفس فكرًا.

قال عنه أحد معاصريه: “ما رأيت أوسع علمًا، ولا أطرف حديثًا، ولا أظرف لفظًا من الجاحظ.”

غزارة العلم وتنوع المعرفة

الملاحظ ليس موسوعياً لأنه حفظ كثيراً، بل لأنه قرأ بوعي، وكتب برؤية، وتأمل الحياة كما تُتأمل القصيدة.

كان يرى أن الكاتب الحقيقي هو من يضع العلوم في خدمة الإنسان، لا أن يجعلها جُدراناً يتكى عليها ليتفاخر.

أسلوبه: فكرٌ يمشي على قدمي السخرية

الملاحظ أول من جعل الضحك وسيلة تفكير.

سخريته ليست استهزاءً، بل هي طريقة في الفهم، تفكك الغرابة، وتكشف التناقض، وتخرق التابوهات.

كتبه التي صاغت ذائقتنا الأدبية

• البيان والتبيين:

يسط الجاحظ أعمق أفكار العرب عن البلاغة، ثم يعرج على الطرائف، وكأنه يقول: "العقل يحتاج إلى النكتة كما يحتاج إلى البرهان." مرجع البلاغيين الأول، وفيه صفحات تُدرّس في الفصاحة والجرأة والمقارنة الأدبية.

هو مرآة العقل العربي وفنونه الخطابية.

• الحيوان: ليس كتاباً في علم الحيوان فقط، بل مرآة ثقافية أدبية تشمل الأمثال، والحكايات، وعلم النفس الحيواني. هو موسوعة أدبية فلسفية قبل أن تكون علمية.

• البخلاء: لا يضحك بعضهم على الشخصيات فحسب، بل يضحك من نفسه، لأنه يرى فيهم شظايا من عاداته اليومية. فهو درة الأدب الاجتماعي في عصره، فيه فلسفة الضحك، وأسلوب التعرية النفسية بسخرية راقية.

كشف فيه النفس الإنسانية كما لم يفعل أحد قبله.

• الرد على النصارى، ومقالات في النحو واللغة، وكتب كثيرة فُقد كثير منها، وما بقي فهو كنز نادر.

هل أهرني؟

أهرني لأنني رأيت فيه مثلاً للكاتب الذي لا يتهرّب من التعقيد، لكنه يقدّمه بلغة مفهومة، وذكاء بسيط، وروح ساخرة.

هو من القلائل الذين لا تحتاج أن تتفق معهم، بل فقط أن تصغي لهم، لأنهم يحترمون عقلك، ويشعلونه دون أن يُطفئوك.

الجاحظ لم يكن يكتب ليُعجبك، بل ليصدمك.

لم يكن يهّمه أن يربح القارئ، بقدر ما يهّمه أن يُرى فيه إنساناً أذكى

لحظات لا تُنسى في أروقة القاعات

أولاً: محاضراتي الأخيرة

ليست كل المنابر واحدة، كما أن كل جمهور له لغته، وله انتظاره. في كل محاضرة كنت أُلقيها، كنت أشعر أنني أعيش لحظة لا تتكرر — لحظة لقاء بين الكلمة والوجدان، بين المخزون وبين المأمول. ما بين المنصات الأدبية، والمجالس الثقافية، والمؤتمرات الأكاديمية، كنت دائماً أعود ومعني شيء جديد: سؤال، أو ابتسامة، أو دمعة، أو حتى سكوت له دلالتة.

1/ فن الارتجال:

(محاضرة – بالتعاون مع مقهى بنشاي: الشريك الأدبي لهيئة الأدب والنشر والترجمة)

كنت أستعرض فيه شواهد من الخطباء والشعراء الذين أنقذهم الارتجال في لحظات المفاجأة، ووجدت أن بعض الحاضرين بدؤوا يجربون ذلك أمامي! وكان المحاضرة كانت تمريناً حياً.

شعرت حينها أن الأدب ليس نصّاً، بل تفاعلاً حياً بين الأذهان. لكن ما منح هذه المحاضرة طعمًا مختلفًا، هو أنها كانت بداية التعاون الأدبي مع الشريك الثقافي الواعد مقهى بنشاي. لم يكن مجرد مكان، بل فضاء يحتضن الكلمة كما لو كانت ضيفًا عزيزًا، ومرفأً للفكرة الباحثة عن مستقرها.

في تلك اللحظة، بدأت علاقة أدبية تشكّلت على مهل، بين محاضر يفتش عن جمهور حيّ، وبين مقهى لا يكتفي بتقديم القهوة، بل يُقدّم معها شيئاً من الجمال والتركيز والاهتمام.

لقد بدا واضحاً، منذ اللقاء الأول، أن بنشاي لا يرافقك كخلفية، بل يقف معك كصاحب رؤية.

في تنسيق الأمكنة، في رقيّ التنظيم، وفي اختيارات الحضور، كانت هناك يد تعرف ماذا يعني أن تصنع للمحتوى بيئته اللائقة.

ومن هنا، انطلقت شراكة ظلّت تتنامى مع الأيام، وامتدّت بعد ذلك عامّاً كاملاً من اللقاءات الأدبية التي لم تكن مجرد فعاليات، بل لحظات صادقة من حياة الفكر والبيان.

وكانت هذه المحاضرة هي الأولى معهم، لتتلوها سلسلة من المحاضرات والندوات، حملنا فيها معاً همّ الكلمة، وفرحة المعنى، وشغف الأدب الحيّ الذي يلامس الناس في أقرب مسافة

2/ الأقراب في الأدب العربي:

تناولت فيها ما بين السطور من علاقات النسب التي لم تسلم من النقد والهجاء والمجاملة في الشعر العربي، فتعلمت أن الأدب لا يخفي شيئاً، بل يكشف الإنسان كما هو، بكل ما فيه من عاطفة وتحيّز وألم ومفارقة.

3/ سرعة البديهة عند العرب

في قاعةٍ تكتظ بالشغف، ألقى محاضرة بعنوان “سرعة البديهة عند العرب”، لم تكن مجرد استعراض لنكات طريفة أو ردود ذكية، بل كانت محاولة جادة

للكشف عن طبقة خفيّة من الذكاء العربي، تلك التي تجلّت في الكلمة السريعة، الحاضرة، المباغثة أحياناً، ولكن دائماً ذات مغزى. تحدّثت عن البديهة لا كمهارة فردية، بل كظاهرة ثقافية، ومملكة لغوية، ودليل على عمق الوعي بالسياق واللغة والموقف. سردت طرائف الجواب الحاضر، وكيف أن الجملة الواحدة قد تنقذ موقفاً، أو تحسم حواراً، أو تكشف عن عبقرية رجل في لحظة. وقد أدهشني أن الكثير من الحضور لم يكونوا يتصورون أن هذه الردود الماثورة كانت في الأصل موقفاً حياً، عاشه قائلوه تحت ضغط المفاجأة، لا في رفاية التأليف.

4/ الوحدة الوطنية – خطاب أدبي:

(بالتعاون مع هيئة الصحفيين)

أقمتها مع سعادة اللواء عبدالله بن سليمان العديلي كان هذا اللقاء يحمل طابعاً وجدانياً وطنياً. استحضرت فيه صوراً من أدبنا العربي الذي يدعو للوحدة، وتذكرت فيه كيف كانت القصيدة في الجاهلية بمقام البيان السياسي. وجدت تجاوباً عميقاً من الجمهور، وكأن كل موقف ذكرته كان يعيد صوغ الانتاء.

وحرصت على تذكير الحضور بأهمية الوحدة واللحمة، فالوطن هو الأب الحنون ومن واجبنا الاجتماع حول أبينا والدفاع عنه بكل ما نستطيع

5/ الصداقة عند العرب:

في إحدى لحظات ذلك الفصل من حياتي، ألقى محاضرة بعنوان “الصداقة عند العرب”، وكان المكان منارة حائل، تلك المنارة التي لا تُضيء بالحضور وحده، بل بما فيها من روح علمية، ونفسٍ ثقافي، وقلوبٍ مؤمنة بأن الكلمة الطيبة يمكن أن تُصلح ما أفسدته السنوات.

كانت القاعة هادئة في ظاهرها، لكنها تمور في باطنها بأصداءٍ قديمة، كأن أرواح العرب الأوائل الذين تغنّوا بالوفاء، وجعلوا من الصديق مرآة القلب، كانوا حاضرين بين المقاعد.

تحدثتُ عن الصديق، ذاك الذي وصفه القدماء بأنه “النصف الآخر من النفس”، لا يرى بالعين، بل يُحسُّ بالحضور، ويُعرف بالثبات.

ثم تأملتُ كيف اتفق الشعراء، رغم تنافر عصورهم، على تمجيد الوفاء، كأن الصداقة عند العرب ليست علاقةً عابرة، بل قيمة كبرى، من صميم الفطرة، وجذرٍ عميق في تراب هذه الأمة.

وكان مما أضحى على تلك الليلة دفئها وألقها، رعاية صاحب السمو الأمير بدر بن فهد آل سعود — رئيس الجمعية السعودية لهواة اللاسلكي، ورئيس منارة حائل — الذي يجمع في شخصه بين الهيبة والرؤية، وبين احترام التراث واحتضان الفكر.

فبرعايته الكريمة، وأفقه الثقافي الرفيع، أصبحت منارة حائل منصةً للفكر، ومساحةً تُستدعى فيها القيم الكبرى بلغة العقل والوجدان معًا.

كانت تلك الليلة أكثر من مجرد محاضرة؛ كانت لحظة التقاء بين الماضي والحاضر، بين الكلمة الصادقة وقلوب تعرف معنى الصدق

6/ التفاؤل من زاوية أدبية:

هنا رأيت الابتسامة تسبق التحية.

كانت محاضرة مرحة الطابع، متفائلة النفس، عميقة التأمل. استشهدت فيها بكلمات الرافعي، وشعر المتنبي، وسير الصابرين، وكأنها دعوة من الأدب لأن نرى النور في منتصف الليل، لا بعد شروقه.

7/ التطور الأدبي والثقافي:

ناقشت فيها مسار الثقافة بين الأمس واليوم، وكان من أطول اللقاءات وأكثرها حوارًا.

خرجت منها بقناعة أن جيل الشباب ليس عابراً، بل باحثاً عن معنى، لكنه لا يريد لغة الوصاية، بل الشراكة.

هذه المحاضرة، كسابقاتها، مرّت من اللسان إلى القلوب، واستقرّت في مكانٍ أحب أن أعود إليه، كلما سألت نفسي: ما الذي يمكن أن تصنعه كلمة ذكية في لحظة فارقة

8/ جمال اللغة العربية

(محاضرة في يوم اللغة العربية – مدارس المجد)

في يوم اللغة العربية، وقفتُ أمام طلاب مدارس المجد، لا لألقي محاضرة تقليدية، بل لأستدعي معهم لحظة من النقاء.

لحظة تشبه تأمل النفس في مرآة اللغة، حين تُصغي إلى صدى الكلمات لا بأذنك، بل بروحك.

تحدث إليهم عن جمال اللغة العربية لا بوصفها نظامًا نحويًا صرفًا، بل ككائن حيٍّ، نابض بالموسيقى الداخلية والمعاني المضمّخة بالعاطفة.

تحدث عن الكلمات التي لا تُترجم، لأنها تحمل من الروح أكثر مما تحتمل المعاجم، كلمات مثل “المودّة” و”السكينة” و”الأنس”، وكيف أن هذه المفردات تنبع من ثقافة شعرتُ ففكّرت، ثم نطقت.

أخبرتهم أن اللغة ليست فقط وسيلة تعبير، بل وسيلة تفكّر، وأن الجمال فيها ليس زخرفًا بل كيانًا عميقًا يُعبّر عن رؤية الإنسان للحياة، والكون، والعلاقة بين الكلمة والوجود.

وكم كنت فخورًا بالحضور، إذ رأيت في أعينهم بريق حبٍ خالص لهذه اللغة التي كثيرًا ما تُظلم تحت ضجيج العصر.

لقد كانت مدارس المجد عنوانًا يليق بالاسم؛ مدرسة تُقدّر الكلمة، وتحتفي بالهوية، وتُقيم للغة العربية مقامًا كريمًا يليق بتاريخها وعمقها.

ولا يسعني إلا أن أثني على إدارتها ومعلميها، الذين منحوا لهذا اليوم بُعدًا تربويًا وثقافيًا، يتجاوز حدود المناسبة إلى فضاء التأثير والتكوين. كانت تلك

اللحظة بالنسبة لي أكثر من محاضرة، كانت عودة إلى الأصل، إلى الجذر، إلى الصوت الأول الذي بدأ له كل شيء (اقرأ)

9/ لماذا تقرأ كتاباً؟

هنا تحولت المحاضرة إلى ساحة اعتراف أدبية.

كثيرون من الحضور تحدثوا عن كتب غيرت مجرى حياتهم، وشعرت أن المحاضرة كانت أشبه بحوار جماعي عن القراءة كخلاص فردي وجماعي.

10/ الفلك والنجوم عند العرب:

كانت لحظة اندهاش، حين عرضتُ فيها كيف عبّر العرب عن الكون بلغة الشعر والفلك، وكيف صنعوا من السماء مجازاً أرضياً لحياتهم. أعادتني هذه المحاضرة إلى دهشتي الأولى من أبيات مثل:
ونحنُ أناسٌ لا توَسِّطُ بيننا

لنا الصدرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ”

11/ الشيخوخة في الأدب العربي:

محاضرة مليئة بالحكمة والعاطفة، عرضتُ فيها كيف رأى الشعراء الشيخوخة: لا بوصفها ضعفاً، بل تلخيصاً للحكمة. خرج بعض الحضور وهم يرددون: ما أجمل أن يشيخ الإنسان وهو لا يزال يحب القصيدة.

12/ قصص الترميز عند العرب:

أدهشت الحضور حين شرحت رمزية الثعلب، والذئب، والنخلة، والبئر في الحكايات العربية. بدا أن القصص القديمة لم تكن بدائية، بل كانت مشفرةً بالحكمة، والذكاء وسرعة البديهة

13/ فن الرد في الأدب العربي

(محاضرة في بريدة - القصيم)

ليست كل المحاضرات سواء؛ بعضها يُلقى، وبعضها يُلقى في الذاكرة، وبعضها — كما حدث في بريدة — يُعيد تشكيل الذاكرة ذاتها.

حين دعاني نادي بصير، الشريك الأدبي المتميز، لإلقاء محاضرة بعنوان “فن الرد في الأدب العربي” في رحاب مقهى فيض، لم أكن أتوقع أن تكون الأمسية أكثر من لقاء أدبي عابر.

لكن سرعان ما وجدت نفسي أمام حضور لا يكتفي بالإنصات، بل يتذوق، ويتفاعل، ويستنطق الأمثلة قبل أن أتمّها.

في تلك المحاضرة، تحدثت عن الردود التي صارت أمثالاً، وعن الجوابات التي أنقذت وجوهاً في لحظاتٍ دقيقة، وعن الكلمة التي حين تأتي في وقتها تكون أشبه بطوق نجاة.

ذكرت مواقف من تراثنا: جواب الجاحظ حين سُئل، وردّ المتنبي حين هُوجم، وصمت الحكماء الذي جاء أبلغ من كل جواب.

كانت الخاتمة أقرب إلى لحظة مسرحية، فيها طرافة، وفيها عمق؛ ضحكنا على بعض الردود، وتأمّلنا طويلاً في غيرها.

فالردّ في الأدب العربي ليس مجرد براعة لغوية، بل هو موقف من الحياة، وقدرة على فهم اللحظة، وتقدير الكلمة.

ولابد من أن أشيد بنادي بصير، الذي أثبت أنه ليس مجرد نادٍ ثقافي، بل رؤية واعية تستنهض العقل وتُكرم الذائقة، وبمقهى فيض الذي أكرم المكان،

فجعله كأنها يتنفس أدباً، وقد كانت بريدة — بما فيها من دفء الضيافة
وصفاء الأرواح — خير مضيف لهذه اللحظة التي أرجو ألا تُنسى

14/ قصص أدبية عن الأصدقاء

ما زالت بعض القاعات تترك أثراً لا يُمحى في الذاكرة، كأنها لا تكتفي بأن
تكون مكاناً، بل تصير لحظة ناطقة، تحتزن الفكر والعاطفة معاً. ومن بين
تلك اللحظات، تبرز محاضرتي التي ألقيتها على طلاب مدارس سهما،
بالتعاون مع الشريك الأدبي المميز مقهى بنشاي، بعنوان: “قصص أدبية عن
الصدقة”.

في تلك المحاضرة، لم أكن وحدي من يتكلم؛ كان الأدب يتكلم من خلالي.
تحدثت عن الصداقة كما رآها الأدباء، لا كقيمة أخلاقية فحسب، بل كتجربة
إنسانية تتجلّى في النصوص، وتنسكب في الحروف.

سردت مواقف من حياة الكُتّاب الذين عرفوا طعم الوفاء، كما ذاقوا مرارة
الجفاء، وبيّنت كيف أنّ الصداقة في الأدب ليست زينة لفظية، بل جزء من
تكوين النص الإنساني.

ما شدني حقاً هو تفاعل الطلاب. كنت أرى في عيونهم أسئلة متلهفة، وفي
وجوههم مساحات من التأمل.

لم يتعاملوا مع ما أقول على أنه كلام موجّه إلى جماعة من المراهقين، بل
استقبلوه كمن يستقبل ضيفاً عزيزاً من زمن جميل.

وكم يُحمد لمدارس سهما هذا الانفتاح الأدبي الذي لا تجده في كثير من المؤسسات التعليمية، حيث تتنفس القيم، وتتجاوز المعرفة بالذوق، وتُعطي الكلمة مقامها اللائق.

أما مقهى بنشاي، الشريك الذي لا يصنع الحدث فحسب، بل يصنع له الإطار الجمالي والروح الثقافية، فقد كان رفيقاً صادقاً في هذه التجربة. فحين يتقدم الأدب في هيئة مقهى، يترك للثقافة رائحة القهوة ودفء المعنى، وهذا ما لمسناه حرفاً وحضوراً.

ثانياً: ورش العمل الأخيرة:

ثم كانت لي محطتان في منارة حائل، ذلك الفضاء الذي يرفع من شأن الكلمة، ويمنح اللقاء نكهة الفكر.

قدّمت هناك ورشتي عمل، أولاهما بعنوان “مهارة ارتجال الكلام”، والأخرى “كيف تقرأ في كتب الأدب”.

في الورشة الأولى، حاولت أن أكسر الحاجز النفسي بين الفكرة واللسان، وبيّنت أن الكلام ليس مجرد كلمات تُرتجل، بل موقف يُبنى، وثقة تُصاغ.

علّمتهم كيف يقفون على المنبر لا ليقدموا مشهداً، بل ليكشفوا عن قناعة، بل ليعبروا عن قناعة، وكيف يُصبح الارتجال تمريناً على صفاء الفكر أكثر منه على طلاقة اللسان.

وفي الورشة الثانية، دخلنا كتب الأدب لا كقرّاء فحسب، بل كمحبّين يبحثون عن شيء ملهم بين السطور.

تكلّمت عن القراءة الواعية، عن الوقوف أمام الجملة كما يقف المرء أمام لوحة، يقرؤها بعينه وعقله ووجدانه معًا.
حاولت أن أزرع فيهم هذا الحس الأدبي، أن لا يمرّوا على الكلمات مرور الغافلين، بل أن يُقيموا في النصوص كما يُقيم هاوي السفر في بلدة فاتنة .
لقد أدهشني مستوى الحضور، وتنظيم منارة حائل، وحرص القائمين عليها على أن يكون اللقاء عميقًا، لا دعائيًا؛ حوارياً، لا تلقينياً.
كانت التجربة تتويجًا لما أوّمن به: أن القاعة قد تكون منارة، إذا وُجد فيها من يُشعل المعنى.

المكتبة ليست مجرد مكان، بل كائن حيّ يتنفس الهدوء ويحتفظ بالأسرار. كم من مرة دخلتها مُثقلًا، وخرجتُ منها وقد خفّ وزني النفسي؟ في مكتبة المدرسة، تعرفتُ على أول كتاب خارج المقررات. لا أذكر العنوان، لكنني أذكر جيدًا أنني تأملت الغلاف عشر دقائق قبل أن أفتحه، كأنني أفق أمام باب لا أعلم ما خلفه. وفي مكتبة عامة، شعرتُ أنني غريبٌ في وطن الكتب. كل كتاب يناديني بصوته الخاص. وكنت كمن يسير في متحف الكلمات، يبحث عن معنى يسكنه. أكثر اللحظات صدقًا كانت في “زاوية القراءة”، تلك التي صنعتها بنفسني في غرفتي: مصباح خافت، رائحة قهوة، ورف صغير يضم كتبي المفضّلة. هناك، كنت ألتقي بنفسني ما من مكان شعرت فيه أنني أقرب إلى نفسي من المكتبة. لا الجبال بشباتها، ولا الصحارى باتساعها، ولا المدن بصخبها، استطاعت أن تمنحني ذلك السكون المهيب الذي تمنحه رفوف الكتب. بدأت حكايتي مع المكتبات منذ طفولتي، حين كنت أرافق والدي، الأديب اللغوي الكبير، إلى مكتبته العامرة التي كانت قلب البيت النابض. كانت كتبه كالأصدقاء، تختلف أغلفتها، وتتوحد أرواحها في احتضان الفكر واللغة والجمال.

مكتبة الوالد.. ذاكرة القلب

كنت أدخل مكتبته كما يدخل المرء قصرًا، أنظر إلى الكتب باحترام، وكأن بينها وبين أبي حديثًا لا ينقطع.

وفي زاوية من الزوايا، كان يجيء مصروفنا داخل أحد الكتب، لا عشوائيًا، بل داخل كتاب محدد العنوان والمؤلف، وكأنها أراد أن يربطنا بالكتاب ربطًا وجدانيًا وتربويًا: أن نحفظ اسم الكتاب لنعرف أين نبحت، وأن نعتاد أن نبحت عن رزقنا من بين دفتي علم ومعرفة.

مكتبة إدارة التعليم

في بدايات عملي، كانت مكتبة إدارة تعليم حائل ملاذًا لي بين ساعات العمل. كنت أجد في أدراجها الكبيرة، وفي رفوفها الخشبية، كنوزًا لا يعرف قيمتها إلا من مسّه حب الأدب مسًا عميقًا. كنت ألتهم الكتب كما يلتهم الجائع لقمته الأولى، بشغف واندهاش.

المكتبات التجارية.. عتبات الحلم

لم تكن روحي تعرف الفارق بين الأسواق والمكتبات؛ فالمكان الوحيد الذي كان يشدني من بين كل البضائع هو تلك الزاوية التي تراكمت فيها الكتب. هناك، تعرفت على "الكامل في اللغة والأدب" للمبرّد، ووقعت في حب "وحي القلم" للرافعي، ذلك الكتاب الذي كان يبدو لي كما لو أنه نُقش من نور.

معارض الكتب.. حفلة القارئ

كنت أنتظر معارض الكتب كما ينتظر المرء صديق عمره.

أتمياً لها كمن يتجهز لعرس ثقافي، أعرف الجديد، وأعيد لقاء الأحباب
القدامى من الكتب.

كنت أنتقل بين الدور، لا أبحث عن عنوان معين، بل أبحث عن رعشة
تصيب قلبي عندما تقع عيني على كتابٍ ما.

تلك الرعشة هي دليل الحب.

دمشق والمطابع.. رحلة البحث

في إحدى رحلاتي إلى دمشق، زرت مكتبة مشهورة ثم اتجهت إلى مطبعة
قديمة”. كنت أبحث فيها عن أثر الخبر العربي الأصيل، وعن طبعات لم
تُدس بعد بالتسطيح.

هناك، أصابني صدمة أدبية حين دخلت مطبعة عريقة كنت قد سمعت عنها
طويلاً، لأجد أن حفيد صاحبها قد حوّلها إلى محل لبيع كتب التكنولوجيا
فقط.

لم أخفِ انزعاجي، وخرجت منها كما يخرج المحارب من معركة لم يُطلق فيها
رصاصه.

لكن، في المقابل، وجدت في مكتبة صغيرة على هامش السوق، كتباً عظيمة
كنت قد بحثت عنها طويلاً. وقفت أمامها متأملاً: كم من الأشياء العظيمة
تُخبأ في أماكن لا نتوقعها.

مكتبتي الخاصة.. الوطن الأخير

وبعد هذه الرحلات، كان لا بد لي من أن أبني مكتبتي الخاصة، لا كمجموعة
كتب فقط، بل كامتداد لكل تلك الذكريات.

هي اليوم في بيتي، تضم كتبي الأول، والهدايا، والمخطوطات، والمراجع، وتلك التي وقّعها أصدقائي الأدباء.

أدخلها كل يوم، وأشعر أنني في حضان الوطن، ذلك الوطن الذي بنيناه من ورق وأفكار وروائع قديمة

ومع مرور الزمن، وجدت نفسي أنجذب تدريجيًا إلى عالم جديد من المعرفة: المكتبات الرقمية.

لم يكن الأمر مجرد بديل عن رفوف الكتب الورقية، بل امتدادًا لها، ونافذة أخرى تطلّ على العوالم التي أحببتها منذ الصغر.

بدأت أزور المواقع المتخصصة، والمنصات التي توفر الآلاف من الكتب والمجلات والدوريات بنقرة واحدة.

في البداية، كان التصفح رقميًا أشبه بالدهشة العابرة، ثم أصبح عادةً تُلازم فترات تأملي وقراءتي الليلية.

لم أغادر المكتبات التقليدية، فهي ما تزال بيتي الأول، لكنني صرت أتنقل بين الورق والشاشة، بين دفء اللمس وبريق الضوء.

بعض الكتب قرأتها على الورق ثم أعدت قراءتها بصيغة إلكترونية لأكتب ملاحظاتي أو أعود إلى اقتباس أحببته.

لقد أضافت المكتبات الرقمية إلى شغفي بالقراءة بُعدًا جديدًا، وجعلت الوصول إلى المعرفة أكثر اتساعًا ومرونة

أدركت مع الأيام أن الكتاب ليس جمادًا صامتًا، بل كائن حيّ، له أنفاس تتردّد بين السطور، ونبض لا تراه العين، لكنه يهزّ الروح.

المكتبة ليست مجرد رفوف، إنها مرآة الذاكرة، ومخزن العمر، وكل كتاب فيها شاهد على مرحلة من حياتي: بعضها قرأته واقفًا في ممر مكتبة ضيقة، وبعضها قرأته جالسًا في حضرة الجبال أو في زوايا المدن المزدهمة، وبعضها كنت أضعه تحت وسادتي كما يُخفي المغترب رسائله.

أحببت المكتبات كما يُحب الإنسان موطنه الأول.

وكلما دخلت مكتبة جديدة، شعرت أنني أعود إلى نفسي من جديد.

“الكتب أوطان صغيرة، والمكتبات مدن يسكنها العارفون

القرآن والحديث... غذاء الروح ومشعل الأدب

ما من روح عطشى إلا وكان كتاب الله سلسيلها، وما من قلبٍ موحشٍ إلا وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنسه وضيائه.

إن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مائدة سماوية، يتغذى منها العقل والوجدان، ويشرب من معينها الأدب والذوق والبيان. القرآن كتاب لا يكفي أن يُتلى، بل يورق في القلب حين يُرتل، ويزهر في الفكر حين يُتدبر.

فيه من السجع ما يأسر، ومن البيان ما يبهر، ومن الحكمة ما يبصر. كل آية فيه نبض من الله، وكل سورة منه فصل من خطاب السماء إلى الأرض.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَتَانًا﴾ ﴿الزمر: 23﴾

هو حديث الله، لا يمله السامع، ولا تنقضي عجائبه. تراه يكرّر المعنى في ألفاظ شتى، فيزداد البيان روعة، وتجدد النفس الإنصات، كأنها تسمعه لأول مرة.

في القرآن، خلق الإنسان، ونُسجت قصته، وتكرّر موته وبعثه، وتجلّت أقداره في حروف من نور.

قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿الإسراء: 9﴾

فهو ليس منهاج هداية فحسب، بل هو قامة الاستقامة، وقانون الجمال،
ومرآة الكمال.

أما الحديث الشريف، فهو الامتداد الإنساني لكلام الله، وهو الصورة البشرية
المثلى لتجلّي الهدي الإلهي في الواقع.

فحين تكلم النبي صلى الله عليه وسلم، كانت كلماته تخرج من قلبٍ موصول
بالوحي، وتُصاغ بلسانٍ أوتي جوامع الكلم.

في حديثه نجد الحكمة مغلفة بالرحمة، والبلاغة مضمّخة بالمحبة، والعلم
موشّى بالتواضع.

قال صلى الله عليه وسلم:

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)

وهذه الكلمة - وحدها - تكفي أن تكون مرجعًا في فلسفة الأخلاق،
ومصدر إلهامٍ لأدب الإنسانية.

القرآن والحديث ليسا فقط مرجعَيْن للفقهِ والشرع، بل هما أيضًا ينبوعان
للبيان، ومدرستان للبلاغة.

في القرآن تجد التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والتكرار الفني، والحذف
البليغ، والتقديم والتأخير، وكل أدوات البيان التي علّمها الله لعباده.

وكيف لا، وهو القائل:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٢﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ الرحمن: 3-4

وكان البيان نفسه هبة ربانية، وعنوان إنسانيتنا، ودليل رُقينا.

لقد كان الشعراء - وهم أئمة اللغة - إذا سمعوا القرآن خرّوا له سُجَّدًا لا رهبة فحسب، بل دهشة وإعجابًا.
وأبو بكر حين سمع قول الله تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾ ﴿التوبة: 40﴾

بكى، لا لأنه صاحبه فقط، بل لأن في هذا التركيب المعجز من البساطة والطمأنينة واللفظ ما يسكب السكينة في القلب كما لا تفعل دواوين البلغاء.

وإذا نظرنا إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم وجدنا فيه اللطافة التي تسبق الأمر، والحكمة التي تسبق النهي، والرحمة التي تغمر التوجيه.
قال: “الدين النصيحة.”

وقال: “ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.”

كلمات قصيرة، لكنها تفتح أبوابًا واسعة من المعاني، وتزرع في الضمير حدائق من الوعي والنور.

فالقرآن والحديث هما نهران جاريان، يغتسل فيهما اللفظ، ويتطهر بهما الفكر، ويتأدب معها القلب.

هما سقيا الروح وغذاء الضمير ومشعل الأدب.

كل أدب لم يغتسل في نهر الوحي، تظّل روحه غائمة، وكل فكر لم يتأمل في كلام الله، يظّل سطحيًا مهما بلغ من العمق الظاهري.
ولعلّ أجمل ما يُجتم به هذا الفصل هو قول الله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء: 192-195

فياله من تنزيل على قلب، لا عقل فقط.

ويا له من لسان، لا ترجمة فحسب.

ويا له من أدب، لا بيان وحسب، بل غذاء وهُدًى ونور

وقد أدرك البلغاء والعلماء من مختلف العصور أن القرآن الكريم والحديث الشريف ليسا مجرد مصادر تشريع، بل هما منهل البيان، وسنام الفصاحة، ومنبع الذوق الأدبي الراقى.

يقول الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز:

“القرآن إنما صار معجزاً لما فيه من النظم العجيب، والأسلوب البديع، والمعاني الشريفة، والألفاظ المختارة، والتركيب الذي لا يشبهه تركيب.”
أما ابن خلدون، فقد ذكر في مقدمته: أن البلاغة هي “أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته”

فكان يرى في القرآن أنه أساس الذوق العربي كله،

فكأنه يقول:

“من أراد أن يتعلم الفصاحة والبلاغة فعليه بالقرآن، فهو أصل اللسان، وعنه تفرعت الفنون، وفيه تأصل الذوق.”

ويقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن: إن للقرآن سراً خاصاً على النفوس حتى يبلغ أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون

العربية... إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن.

فأنت لا تقرأ القرآن إلا وتجد نفسك أمام بحر لا يُحَدِّد، تنظر فتراه كلامًا، ثم لا تلبث أن تراه روحًا تسري، ونورًا يضيء، وطمأنينة تهمس في أذن القلب، وحكمة تُسكب على العقل سكبًا

فما من أذن عربية أصغت للقرآن إلا وتبدلت طباعها اللغوية، فكل من سمعه تغير ذوقه، وانقاد بيانه إلى نسق من الجمال لم يعرفه من قبل.

ولم يكن الأدباء وحدهم من شرب من نهر النبوة، بل حتى المستشرقون - على اختلاف مشاربهم - وقفوا بإجلال أمام هذه النصوص،

كتوماس كارلايل (Thomas Carlyle)

ويوهان غوته (Johann Wolfgang von Goethe)

وليوتولستوي (Leo Tolstoy)

ولامارتين (Alphonse de Lamartine)

وجورج برنارد شو (George Bernard Shaw)

ومارسيل بوازار (Marcel Boisard)

وإتيان دينيه (Étienne Dinet)

ورينيه غينون (René Guénon)

وإدوارد مونتيه (Edward Montet)

وهنري كوربان (Henry Corbin)

ورودلف زايغر (Rudolf Seyer)

و آرثر جيلمان (Arthur Gilman)
 و ريجيس بلاشير (Régis Blachère)
 و هاملتون جب (Hamilton Gibb)
 و جون دافنبورت (John Davenport)
 و ول ديورانت (Will Durant)
 و ليوبولد فايس (Leopold Weiss)
 و أنري برناس (Henri Bérenger)

فنصوص القرآن تمثل أوج ما وصلت إليه العربية من نقاءٍ وصفاء، ولها في النفس تأثير وجداني وعقلي منقطع النظير

وأحاديث الرسول ﷺ: التي هي وحي يوحى ليست إلا صوتاً ينقله جبريل عليه السلام من الله سبحانه وتعالى بأبهى الصور وأقوى الألفاظ وأبلغ العبارات.

وهكذا تضافرت شهادات العرب والعجم، والمسلمين وغيرهم، على أن في القرآن والحديث سرّاً لا تدركه اللغة فحسب، بل تحتفل به الأرواح، وتترى عليه العقول، ويبنى به الذوق والوجدان

القلب - موضع البصيرة ومحرك الكائن

ليس القلب مجرد عضلة تضخّ الدم، ولا مجرد موضع للعواطف، بل هو سرٌّ من أسرار الإنسان.

في القلب تنعقد النيّات، ومنه تنبُع البصائر، وهو أول ما يزكو في المرء إن أراد النجاة، وآخر ما يفسد إن ران عليه الهوى.
قال تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

وهذه الآية تقلب المفهوم، فتجعل العمى الحقيقي لا في العين، بل في القلب. كأن البصيرة وليدة القلب لا العقل.

والعرب كانوا يقولون: “فلان له قلبٌ حي”، أي أن فيه يقظةً ووجداناً وشهامة، وقالوا عن الميت ضميراً: “فلان قلبه ميت”، أي لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً.

وفي حديث النبي ﷺ:

ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب” [متفق عليه]

فهذا يعلمنا أن القلب هو مركز الإصلاح، فإذا صلح، تبعته الجوارح، وإذا تعفن، تعفن الكيان كله، وإن بدا نقيّاً ظاهريّاً.
وفي شعر الشافعي، ومضات من هذا التأمل:

إِذَا الْمَرْءُ لَا يِرْعَاكَ إِلَّا تَكَلُّفًا

فَدَعُهُ وَلَا تُكْثِرِ عَلَيْهِ التَّأْسُفَا

فهنا لا يتحدث عن العاطفة الغرامية، بل عن الوفاء المنبعث من صفاء القلب، ويحثّ على الإعراض عن القلب المزيف المتصنّع. القلب كذلك مخزنُ السرائر، وموطنُ النوايا، ومصدرُ الإخلاص أو الرياء. ومتى تجرّد القلب من الصدق، سقطت كلّ أعماله، ولو عظمت.

العقل – ميزان الإنسان ومفتاح التوازن

العقل ليس آلة حسابٍ فحسب، بل هو الحكم بين الرغبات، والموجه إلى سواء السبيل.

هو الحصن الذي نلوذ به حين تغرينا العاطفة، وهو النور الذي نحتكم إليه عندما تظلم الرؤى.

قيل:

ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل”

وهذا يبين أنه أساس التكليف، وأصل التمييز بين الحق والباطل.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

قيمة كل امرئ ما يُحسن،

والعقل حفظ التجارب”

وهذا يجعل من العقل شيئاً مكتسباً ينمو بالتجربة، لا مجرد غريزة جامدة.

ولقد تغنى المتنبى بعظمة العقل فقال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

فهو يقدّم الرأي، أي حكمة العقل، على كل قوة بدنية، لأن بطش الجسد دون

عقل طائشٌ أعمى.

وقد قيل:

العقل عقْلان، غريزيٌّ ومكتسب، وكلاهما لا يُستغنى عنه.”

وهذا يشير إلى أنّ الإنسان لا يولد حكيمًا، بل يتهدّب العقل بصقل التجربة،
ومجالسة أهل الفكر، وممارسة التأمل.
فالحياة بلا عقلٍ مجرد حركة جسد، وأن النجاة في الدنيا والآخرة مرهونة
بوعي الإنسان

العيون – مرآة البصيرة ومنافذ المحاسبة

العيون ليست آلة للرؤية فحسب، بل هي نافذة على القلب، وأداة اختبار للروح، وموضع محاسبةٍ دقيقٍ يوم تُبلى السرائر.
قال تعالى:

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19]

تأمل دقة التعبير: ليست النظرة وحدها في الميزان، بل حتى خيانتها، أي ما يُيديه الإنسان من نظرٍ مستتر، أو نوايا خفية لا يطلع عليها أحد، لكنها عند الله معلومة.
ويقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ

مَسْعُورًا ﴾ [الإسراء: 36]

فالعين تُسأل كما يُسأل القلب، بل هي من أول أدوات الإدراك التي تُفتح للإنسان، وهي التي تفتح له أبواب المعرفة أو الفتنة.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بغضّ البصر فقال:

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: 30]

وغض البصر طهارة قبل أن نراه قيداً وزكاة للنفس قبل أن يكون حرماناً.

إنما هو انضباط النفس أمام فوضى الرغبات.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ:

العينان تزنيان، وزناهما النظر...” [رواه البخاري 6243، ومسلم 2657]
فالنظر سهمٌ من سهام إبليس، وإنَّ أولَ الزللِ نظرةٌ لا تُرد، وخطوةٌ لا تُحسب، فإذا بالرغبة تستفحل، والنية تنعقد، والعمل يُكتب.

وفي مقابل الخيانة، هناك دمعة الإخلاص، فقد قال ﷺ:

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه” [رواه البخاري 1423، ومسلم 1031]
فالعين هنا تُكفِّر عن نفسها، بالبكاء من خشية الله، والدمعة الصادقة من عين خاشعة، أبلغ من ألف قولٍ يُقال.

وقد أحسن عنتره حين قال:

وأغصَّ طرفي ما بدت لي جارتِي

حتى يوارِي جارتِي ما واهَا

فهو يفتخر بتواضعه في البصر، وينبه إلى خلق الغصّ النابع من أدب النفس لا من فقر النظر.

والحق أن العين أقرب الجوارح إلى الوقوع في الخطأ، لأنها أكثرها نشاطاً، وأقلها مقاومة.

ولهذا قال الشاعر:

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها

فتلك السهام بلا قوسٍ ولا وترٍ

والمرء ما دام ذا عينٍ يُقلِّبُها

في أعين الناس موقوفٌ على الخطرِ
فالمعركة لا تبدأ بالعقل ولا تنتهي بالقلب، بل تبدأ من نظرة، تُنبت فكرة،
وتنتهي بميلٍ قد يُهلك إن لم يُلجم.

رائحة الطعام... وذاكرة الكرام

من بين كلّ الحلال التي تحلّى بها العرب، ما طرقت قلبي خلق كطرقهم الكرم. هو عزّ المكارم، وسنام الفضل، ولُبّ المروءة، ووسام لا يُمنح إلا لمن خالط النبل دمه، والكرامة روحه.

ومنذ قرأت في كتاب الله عن إبراهيم عليه السلام، أدركت أن الضيافة ليست عادة قوم، بل خلق نبي.

فقد جاءه الضيفان، فما استقبلهم بالسؤال، ولا بالريبة، بل بالمائدة، قال تعالى:

﴿ فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات: 26]

فكان أول من سنّ للناس سنة إكرام الضيف، وجعل من المائدة بوابة إلى الإيوان.

ثم أتى خاتم النبيين محمد ﷺ، فكان أجود الخلق يدًا، وأوسعهم صدرًا، وأكرمهم ضيافةً ووجهًا.

قال ابن عباس في الحديث الذي رواه البخاري:

كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان...” وكان لا يُردُّ عنده جائع، ولا يُغلق دونه سائل، حتى قيل: “ما سُئل شيئًا فقال لا.”

وقد أرسى ﷺ قاعدة الكرم بقوله:

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.” [متفق عليه]

فصار إكرام الضيف دليلاً على صدق العقيدة، لا مجرد كرم طبع .
ولا عجب... فقد كان النبي ﷺ من قريش، وهم أكرم العرب نسباً وحسباً،
وقد اختارهم الله لحمل الرسالة، واختار من قريش بني هاشم، فقال فيهم
العلماء: "أكرم قريش بنو هاشم."
فكانت قريش هم أهل السقاية والرفادة، يُطعمون الحجيج، ويُسقون
الركب، ويُهيئون الزاد لطلبيه.
ومنهم زاد الركب الذين اشتهروا بكفاية المؤونة لمن يريد صحبتهم في
أسفارهم .
وإذا نظرت إلى الجاهلية، رأيت الكرم أمةً قائمة، تعيش في الخيام والنيران،
والأجواد في الجاهلية لا نستطيع عددهم وحصصهم ولكن وصل إلى ذروة
السنام ثلاثة: حاتم الطائي وكعب بن مامة الإيادي وهرم بن سنان الذبياني
فلم يُذكر الجواد إلا قيل: حاتم الطائي، الذي أضاعت ناره الدجى، وكان
يطعم الضيف ولو على حساب فرسه.
وهذا كعب بن مامة الإيادي أثر صاحبه بالماء ومات عطشاً.
وهرم بن سنان، الذي أطفأ سعيير الحرب بهاله.... قال فيه زهير:
تراه إذا ما جتته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ثم جاء الإسلام، فطهر الكرم من الرياء، وربطه بالإيمان،
فكان الكرم في أصحابه سمياً عظيماً.
فكان الأجواد في الإسلام أضعافهم في الجاهلية وذلك لطول المدة .

فوصل لذروة السنام في الإسلام أحد عشر رجلاً، والعجيب أنهم كانوا في زمن واحد:

قال ابن عبد ربّه:

(وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلاً في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم:

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العبّاس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد وهم: عبد الله بن عامر بن كريز، وعبيد الله ابن أبي بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم بن زياد، وعبيد الله بن معمر القرشي ثمّ التيمي، وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي.

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعكرمة بن ربّعي الفيّاض)

وإن أنسى فلا أنسى في الجاهلية أو الإسلام عبد الله بن جدعان، الذي وُصف بـ”حاسي الذهب”، وكان يُطعم في الموسم، ويقري الضيف، حتى سارت بمآثره الركبان،

وعبد الله بن حبيب (آكل الخبز)، الذي صار مضرب المثل في جوده فقيل: “أقرئ من آكل الخبز.”

ومحمد بن عمير، والقعقاع بن معبد (تيار الفرات) و مرة بن محكان، الذي كان يُلقَّب بـ”أبي الأضياف”، فلم تُطفأ ناره، ولم تُغلق بابه، حتى صار مضرِبًا للمثل، وأبا دلف ومعن بن زائدة الشيباني والكثير الكثير من الأجواد والكرمء التي تزدهم الكتب بذكرهم وتعج الصفحات بأشعارهم وتضيء المكتبات قصصهم .

فنحن في صحراء الجزيرة العربية لا نجلس على سُفرة إلا وفيها موضع لغيرنا، ولا نشبع إلا مع جليس وأكيل.

فالكرم ليس طعامًا فقط، بل كرامة نفس، وحقاوة وجه، وطمأنينة ضيف.

وما زلت أرى أن الخبز حين يُقدِّم للضيف، يُصبح أشرف من الذهب،

وأن كأس الماء إذا سُقي به عابر سبيل، صار أصفى من نهر دجلة

وإن سُئلتَ يومًا: ماذا ترك لك الزمان؟ فقل: ترك لي ضيفًا، وكرمًا، وموقدًا

لا تنطفئ ناره... وهكذا أبقى حيًّا في ذاكرة الكرام

شهقات شعر الكرم

وإذا كان الكرم زاد القلوب، فإن الشعر عنه زاد العقول، وقد سُطِّرت في

مدحه ألسنة السادة، وهتف به الفرسان قبل الشعراء.

قال حاتم الطائي:

أَمَاوِيٌّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ

وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فيذكرنا بشعره الجميل النبيل الصادق: أن سيرة الرجل أطول من عمره .
وقال قيس بن عاصم - رضي الله عنه - وكان لا يأكل وحده - في بيتٍ
يتوهج بالمروءة:

إذا ما أصبتُ الزادَ فالتمسي لهُ

أكيلاً، فإنِّي لستُ آكلُهُ وحدي

فيا لروعة المعنى! كأن الطعام دون شريكٍ عارٌ، والمائدة دون ضيفٍ منقصةٌ.
وقال عمرو بن الأَهمم مُجاهراً ببغض البخل، متبرئاً منه:

ذريني فإنَّ البُخلَ يا أمَّ الهيثم

لصالح أخلاق الرجال سروق

ولم يكن الكرم عندهم في اللقمة فقط، بل في البشر والاستقبال، فقال:

أُضاحك ضيفي قبل إنزال رحله

ويخصُّبُ عندي والمكانُ جديبُ

أما الحطائط بن يعفر، فقد ضاق صدره من البخلاء، فهتف متحدياً:

أريني جواداً مات هزلاً لعلمي

أرى ما ترين أو بخيلاً مخلداً

أراد أن يرى ما يعتقد البخلاء، فلم يجد إلا وهماً تتحدث به النفوس
البخيلة.

ونختم بقول المقنع الكندي:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا

وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

يذكر أنه لا يتنازل عن عزته وشموخه العربي الأصيل إلا لخدمة ضيفه لأن

خدمة الضيف عند العرب هي مصدر فخرهم، وقد قيل في المثل: ثلاثة لا

يستنكف العربي من خدمتهم: الوالدين والضيف والفرس

هكذا كانت العرب ترى الكرم مقياسًا للرجولة، ومعياريًا للسيادة، ومراةً

تنعكس فيها صورة العشيرة

مزيجي الأدبي... ما بين فصاحة الرمل ونور النبوة

حين يسألني أحدهم: إلى أي مدرسة أدبية تنتمي؟
أبتسم وأجيبه بصمت، لأن جوابي ليس تيارًا، ولا مدرسة، ولا تكرارًا
لتصنيف عابر.
أنا مزيجٌ نَسَجْتُهُ العصور، خطبٌ في طيبة، ودمعٌ في بلاط، وحنينٌ في قرطبة،
وكتابةٌ متأملة تحت ظل مصباح حديث.
ولدت ذاتقتي في الصحراء الجاهلية، على رمال المعلقات، هناك حيث الكلمة
كانت سيفًا وماءً.
تعلمت من امرئ القيس كيف يكون الشعر غليظًا في القلب،
ومن زهير كيف ترن المعاني بميزان العقل،
ومن عنتره أن الفصاحة لا تعني النعومة دائمًا، بل قد تكون طعنًا يصدر عن
كبرياء جريح.
ثم مشيت قبيبًا نحو صدر الإسلام، وهناك انسكب البيان بمعناه الأعلى.
من خطب النبي ﷺ، أخذت حرارة الإيثار وعذوبة التبليغ.
كأن كل كلمة فيه كانت نبضًا يخاطب الأرواح قبل الأذان.
ومن خطب أبي بكر وعمر-رضي الله عنهما- تعلمت أن البلاغة إذا لم
تسكنها المسؤولية، فهي صدئ لا أثر له.

ومن حكمة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تذوقت شهدها، وامتزجت بحياء عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، ثم رأيت بني أمية، يتعثرون بالفتن، لكن شعراؤهم يكتبون وكأنهم ينقشون على الجمر.

في فخر الفرزدق، واعتزاز جرير، ورقة جميل بثينة، رأيت كيف أن الاضطراب السياسي لا يُنهي الجمال، بل أحياناً يجعله يصرخ بصوت أقوى. ثم أتيت إلى العصر العباسي، هناك حيث العقل يتوهج، والنثر يتألق كمنحوتة لغوية.

تعلمت من الجاحظ كيف يمشي الفكر على قدم السخرية، ومن ابن الأثير كيف يكتب الإنسان بدم قلبه لا بحبر قلمه، ومن المتنبي... ذلك النجم، تعلمت كيف يضع الشاعر رأسه في السماء، لكن قدميه في أمر التجربة.

أما العصر الحديث، فهو لي أشبه بوردة نمت على جدارٍ قديم. أحببت فيه تنوعه، ذلك الذي لا يطمس الهويّة بل يحاورها. أصغيت إلى عمر أبي ريشه، وكأن روحه تعزف لي على وتر الشموخ، ووقفت طويلاً أمام أدباء العصر الحديث، لا أنكر فضلهم، لكنني اخترت أن آخذ منهم ما يبقى بعد أن يهدأ الصخب.

إن مزيجي الأدبي ليس انتقاءً من عصور، بل تكوّنٌ داخلي. ليس تحنيطاً لتاريخ، بل تجددٌ يشبه جذور النخل، تمتد في عمق الأرض، لكن رأسها يلامس الغيم.

أنا ذلك الذي يشرب من ماء زمزم،

ويكتب بالحبر الذي غمسه الفرزدق في دمه، ويؤمن أن للمعنى وجهًا لا
يُكشف إلا حين تضيئه شمعة من “دلائل الإعجاز”،
وحين تمر به ريح من غبار قوافل الحجيج، أو صوت حزينٍ في ربوع
الأندلس.
في شيء من الماضين، لكن ما أكتبه الآن... لي

وها أنا أطوي هذه الصفحات، لا لأنها قالت كل شيء، بل لأنها قالت ما استطاعت روحي أن تهمس به في لحظات صفاء، وما أسعفني به قلمي في دروب التأمل.

لستُ ناقدًا محترفًا، ولا فيلسوفًا يُخلِّق في المجردات، بل إنسانٌ بسيطٌ أحب الدين كما نزل على نبي الرحمة، وآمن بالثواب التي صاغت ضمير أمتنا، وآثر أن يظل قلبه معلقًا بنور الشريعة، كما تتعلَّق السنابل بنبعها الأول.

أحببت وطني، لا لأن الأرض تُسكن، بل لأن الوطن يسكن فينا، في لهجتنا، في مآذننا، في أعلامنا، في عيون من نحب.

وولائي لولاة أمري ليس تفضلاً، بل وفاءً للعهد، وصدقٌ في الانتفاء، واحترامٌ للقيادة التي تحفظ الأمن وتزرع الاستقرار.

وفي موازاة ذلك كله، كنت ولا أزال عاشقًا للأدب، أرى فيه طريقًا لفهم الذات، ووسيلة لترميم القلب.

كتبْتُ لأن الكلمات كانت تؤنسيني، ولأن الصفحات كانت تفتح لي نافذة كلما أغلقت أبواب العالم.

قد يراني بعضهم كلاسيكيًا، لا أركض خلف الحداثة الصاخبة، ولا ألثت خلف الصيحات.

نعم، قد أكون كذلك، لأنني أؤمن أن القديم الذي نبت في أرض القيم، خير
من جديد بلا جذور.

أحب البلاغة إذا كانت صادقة، والفكر إذا كان متزنًا، والجمال إذا كان
مؤسسًا على معنى.

ما كنتُ وحدي إذ قطعْتُ الطريق، ولا كنتُ بمفردي حين جلستُ إلى الأوراق أُقَلِّبُ الحروف وأستنطق المعاني.

ثمة ظلالٌ كانت تحفّني، وسكينةٌ تسندني، وقلوبٌ تؤمن بي حتى في صمتي الطويل.

لم يكونوا معي في بدايات الدرب، حين كنتُ أكابد التأسيس وأرصف اللبنة الأولى، لكنهم جاؤوا في نصف المشوار، فكانوا خيرَ مؤازر، وأوفى رفقة.

زوجتي... تلك السيدة التي لم تقف على منبر، لكنها كانت منبراً في صبرها. لم تُحاضر، لكنها في كل ندوة كانت الحاضرة بصمتها، تسند ظهري بدعوة، وتمهّدي الطريق بابتسامةٍ لا تُقال، بل تُفهم.

حملت همومي كما يُحمل السراج في الظلمة، وسهرت معي سهر الوراقين، لا لتراجع الكتب، بل لتراجعني أنا حين أتعب.

وأولادي... تلك الزهرات التي نبتت على ضفاف أيامي، ما طلبوا الكثير، وما شكوا الغياب، لكنهم كانوا يرقبونني بنظراتٍ تؤمن بي أكثر مما أُؤمن بنفسي.

صغاري الذين ما عرفوا كُتب البلاغة، لكنهم بلاغتي حين أضعف، وسندي حين أشتدّ التعب.

شاركوا في بناء مكتبتي لا بالقراءة فقط، بل بحمل الصناديق، وترتيب الرفوف، والاحتفاء بكل كتابٍ جديد كأنه عيد.

حين مضيتُ في درب الماجستير والدكتوراه، ما كنتُ أطرق أبواب العلم وحدي، بل كانت خطواتي تتكئ على دعواتٍ صامتة، وعلى طمأنينة بيتٍ لم يعرف الضجر من انتظاري الطويل.

في كلِّ محاضرة، في كل ورشة، في كل سطرٍ كتبته، ثمة أثرٌ من أعينهم، من دعواتهم، من صبرهم.

إن نسيْتُ، فلا أنسى أن من خَلَف الإنجاز وجوهًا لم تطلب ظهورًا، لكنّها ظهرت في قلبي بيقين.

إليهم...

إلى زوجتي، الحصن إذا اشتدَّ الهجير، والسكينة حين يعصف السؤال.
إلى أولادي، الجمال الطفولي الذي يُعيد إليّ إنسانيتي حين تُغريني قاعات التصفيق.

أقولها وأنا أسطرُّ أحرفي:

ما كنتُ أنا... لولا الله ثم وجودهم.

وما كان هذا المشوار... لولا الله ثم دفع خطاهم

الخاتمة

في نهاية هذا المسار، أدركت أن الكتابة ليست فعلاً تُمارسه، بل كينونة تُملي علينا ما نكونه.

نكتب لفهم أنفسنا، لا لنشرحها.

نستدعي الكتب والذكريات والروائح القديمة والقصائد البعيدة، لا لنباهي بها، بل لنملاً بها تلك المساحة بين “من نحن” و”من نظن أننا كنا”.

الكتابة ليست تسجيلًا للذاكرة، بل إعادةُ صنعٍ لها.

حين كتبتُ عن المعلقات، لم أكن أشرح شعر امرئ القيس، بل كنت أبحث في داخلي عن صحرائي الخاصة.

وحين تأملت في المتنبي، لم أكن أستعرض الفخر والكبرياء، بل كنت أستخرج ما تبقى في داخلي من شهقة حياة تستحق أن تُعاش بشموخ.

لقد فهمت، في هذه الرحلة، أن الذاكرة ليست محفوظة في رفوف العقل، بل محفورة في النبض، في الارتباك الذي يصيبك حين تمرُّ على بيت شعر ظننته بعيداً عنك، فإذا به يصفك.

كل كتاب قرأته، وكل شاعر اقتبسته، وكل عبارة دونتها على هامش دفتر قديم...

كانت محاولة مني لأفهم لماذا تُشبه اللغة أحياناً الدواء، وأحياناً الجرح.

أدركت أن اللغة لا تُستخدم فقط، بل تُسكن.

وأنا لا نختار ما نكتب، بل ما نكتبه يختار اللحظة التي يطلُّ فيها من بين ظلالنا، ليضع نفسه على الورق.
الكتابة ليست نشاطاً أكاديمياً.
إنها موقف وجودي.

إنها إعلان بسيط جداً في شكله، عميق جداً في أثره: أنا كنت هنا.
أنا أحاول أن أفهم. أنا لا أسلم بسهولة.
أيها القارئ،

هذا الكتاب لم يكن بحثاً، بل سيرة أدبية تكتبها الروح بقلم التجربة.
وفي النهاية، هذا الكتاب ليس سوى مرآة رוחي في لحظة صفاء، كتبته وأنا
أفتش في ذاكرتي، لا لأرويها فقط، بل لأفهمها.
ولعل من يقرأ هذه الصفحات، يرى فيها نفسه، كما رأيتُ فيها نفسي،
فكلنا — حين نكتب — لا نكتب لأننا نعرف، بل لأننا نبحث، ونشتاق،
ونتذكّر.

ولعل كل ما أردته، في النهاية، أن أقول:
أنا أكتب لأبقى. وأنا أكتب لأتغير
والله المستعان، وإليه المعاد

المراجع

أولاً: القرآن الكريم والسنة النبوية

- القرآن الكريم
- تم الاستشهاد بعدد من الآيات الكريمة
- الزمر: 23،
- الإسراء: 9،
- التوبة: 40،
- الرحمن: 3-4،
- الشعراء: 192-195).
- غافر: 19
- الإسراء: 36
- النور: 30
- الأحاديث:
- صحيح البخاري
- الحديث: “إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق.”
- الحديث: “الدين النصيحة.”
- الحديث: “أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.”
- البخاري (رقم: 6243، 1423)

ثانياً: المراجع العربية

- أدب الكاتب لابن قتيبة
- أساطير شعبية من قلب الجزيرة العربية": عبدالكريم الجهيمان
- أسرار العربية للأنباري
- إطلالة على المجتمع - عبدالله تركي البكر
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافي
- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان،
- ابن القيم
- الأبطال توماس كارلايل
- الأبله فيودور دوستويفسكي
- الأحكام في أصول الأحكام ابن حزم
- الأحكام في أصول الأحكام للآمدي
- الأدب الكبير عبد الله بن المقفع
- الأصمعيات للأصمعي
- الأعلام خير الدين الزركلي
- الأعمال الكاملة علي أحمد باكثير
- الأغاني أبو الفرج الأصفهاني
- الألفاظ لابن مرزبان

- الأيام طه حسين
- البخلاء - الجاحظ
- البداية والنهاية - ابن كثير
- البلاغة النبوية الرافعي
- البيان والتبيين - الجاحظ
- الجريمة والعقاب فيودور دوستويفسكي
- الحيوان - الجاحظ
- الخطط المقرزية المقرزي
- الزهد والرقائق عبد الله بن المبارك
- السيرة النبوية - ابن هشام
- الشعر والشعراء لابن قتيبة
- الطب النبوي ابن القيم الجوزي
- العبرات والنظرات المنفلوطي
- العقد الفريد - ابن عبد ربه
- الفوائد - ابن القيم
- الكامل في اللغة والأدب - المبرد
- المذكر والمؤنث لابن الأنباري
- المزهر السيوطي
- المستطرف في كل فن مستظرف الأبيهي .
- المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنتقطي

- المعمرون والوصايا السجستاني
- المفضليات للمفضل الضبي
- المقامات الحريري
- المقدمة ابن خلدون
- الملاحن لابن دريد
- المنتظم لابن الجوزي
- النبي جبران خليل
- النقائص لأبي عبيدة التيمي
- النوادر لأبي علي القالي البغدادي
- النوادر في اللغة لابي زيد الانصاري
- الوسائل إلى مسامرة الأوائل السيوطي
- أوراق الورد الرافعي
- بدائع الزهور: ابن إياس
- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري
- تحت راية القرآن - الرافعي
- تهذيب اللغة للأزهري
- جمهرة خطب العرب أحمد زكي صفوت
- جواهر الأدب للهاشمي
- حديث الأربعاء طه حسين
- حديث القمر الرافعي

- حلية الأولياء أبو نعيم الأصبهاني
- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني
- دمعة وابتسامة جبران خليل
- دواوين عبدالرحمن العشماوي
- ديوان أبي الطيب،
- ديوان أبي العتاهية
- ديوان أبي تمام،
- ديوان الأخطل،
- ديوان الحماسة لأبي تمام
- ديوان الإمام الشافعي
- ديوان البحتري،
- ديوان الفرزدق،
- ديوان: امرؤ القيس
- ديوان: جرير
- ديوان زهير بن أبي سلمى
- ديوان سقط الزند المعري
- ديوان طرفة بن العبد
- زاد المعاد ابن قيم الجوزية
- سير أعلام النبلاء الذهبي
- شعراء نجد المعاصرون

- عبدالله بن إدريس
- طوق الحمامة لابن حزم
- عدالة وفن توفيق الحكيم
- فقه اللغة للثعالبي
- في الأدب الجاهلي طه حسين
- كائن لا تحتمل خفته ميلان كونديرا
- كتاب اللاطمأنينة فرناندو بيسوا
- كتاب شرح المعلقات السبع
- للقاضي الزوزني
- لسان العرب لابن منظور
- مائة عام من العزلة غابرييل غارسيا ماركيث
- مجمع الأمثال للنيسابوري
- مختار الصحاح للرازي
- مدارج السالكين - ابن القيم
- مدخل إلى القرآن الكريم رودي بارت
- مروج الذهب للمسعودي
- مع الرعيل الأول د. محمد حسين
- مقالات ودراسات حول القراءة الورقية والرقمية
- مفتاح دار السعادة ابن قيم الجوزية
- نفع الطيب المقرئ

- وحي القلم - الرافي
ثالثاً: المراجع الأجنبية

6Analects of Confucius – translated by Arthur Waley, Vintage Books.

Collected Works of Mahatma Gandhi – Publications Division, Government of India.

Plato’s Dialogues (especially “Phaedo” and “Apology”) – translated by Benjamin Jowett.

Bertrand Russell, The Conquest of Happiness, Routledge.

Republic

(CWMG, Vol. 13)

(The Birth of Tragedy)

(Human, All Too Human)

(The Gay Science)

Analects (كتاب الأقوال) – تأليف: كونفوشيوس، ترجمة إلى

الإنجليزية: Arthur Waley، طبعة Penguin Classics.

The Republic (الجمهورية) – تأليف: أفلاطون، ترجمة:

Benjamin Jowett، طبعة Oxford World’s Classics.

المؤلف في سطور د. ناصر عبدالله تركي البكر

- دكتورة في الأدب العربي
- أخصائي تقويم المدارس
- مدرّب معتمد
- عضو رابطة أدباء العرب
- عضو في أدبيات العصر الحديث
- عضو شرف ملتقى الأدباء العرب
- عضو جمعية الإملاء العربية
- عضو مجلس إدارة نادي حائل الأدبي سابقاً
- عضو شرف ديوانية شعراء حائل سابقاً
- رئيس لجنة الدورات التدريبية في نادي حائل الأدبي سابقاً
- رئيس لجنة المسابقات في نادي حائل الأدبي سابقاً
- له مشاركات أدبية وثقافية وتاريخية في كثير من القنوات الفضائية والصحف والمجلات ووسائل التواصل الاجتماعية
- أقام العديد من الأمسيات والمحاضرات والندوات والدورات وورش العمل بالتعاون مع الشريك الأدبي (هيئة الأدب والنشر والترجمة) وبالتعاون أيضاً مع منارة حائل وجهات حكومية وخاصة كثيرة جداً



عمسور للنشر والتوزيع



9 789923 173275

Mobile: +962795979893 / P.O.box: 910431 Amman 11191 Jordan

E:Mail: ausoor2020@gmail.com